هشام بن الشاوي

كائنَـاتٌ من غُبـار

رواية

1

كما يجدر برجل وحيد وبائس تغفو إرهاقًا، والحافلة تمخر عباب الإسفلت، في ظلمة المغيب الشاحبة..تنتبه إلى أن تلك الفتاة المحجبة تشبه امرأة سكنتك، ذات شقاء. على الأقل، هذه تتطلع إليها بحرية، وأنت تدرك تمام الإدراك أنك رجل غير ناضج عاطفيًّا، تطارد سراب استقرار عاطفي.

كانت أجمل ما أبصرت عيناك - يومها- وكانت تصدك، وأنت بكل الضعف الإنساني، الذي يختزله الحب اليائس تطاردها،وهي مدججة بكبرياء مراهقة، شهية، حلوة.. بشفتين قرمزيتين، وجه كالقمر، عينين قاتلتين، حتى لو رمتك بنظرات احتقار.

اعتقدوا أنها مجرد نزوة، كان رفاقك وأقاربك يسخرون منك.. صديقك الكهل استعرض مغامراته، هازئًا منك في إشفاق.. أوهمك بأنه بطل من أبطال الميلودراما الهندية، فاز بقلب معبودته، متحديًّا كل الصعاب... فكّرت في ما يقال عنه، وهو يسلّم راتبه الشهري لزوجته، التي تتكفل بكل أعباء البيت المادية، ويأخذ منها ما يبتاع به سجائر، محدد عددها كل يوم !!.

كلما التقيت هندًا - مصادفة- قريبًا من محيط الحي، رمتك بنظرة تتجاهلها، تحدق فيك لوهلة، باحثة عن وجه الشبه بينك وبين الذي كنته، مستعيدة شيئًا مفقودًا.. حتى الأصدقاء اندهشوا حين التقوك بعد سنوات، وقد تخلصت من بعض نزقك.
لا تستغرب، حتى مشاعر النساء تتبخر، كتلك التي كتبت إليك، في بداية غرقكما العاطفي :"...Je t'aime, à la folie".

كان أول (مسج) وصلك منها. لم يكن تعارفكما حبًّا من أول نظرة، وإنما وليد لقاءات قصيرة، ثم صرت "نسيًا منسيًّا"، يا قلب!.
دائما تضيع كل الأشياء الجميلة باستبدادك العاطفي، بمحاكمتك لماضي حبيباتك، بكلماتك الأشبه بالخناجر، وأنت تحب بسادية وتغار بطريقتك الهوجاء..

- لن أنساك إلا في حالة واحدة: زواج أحدنا. لا أستطيع أن أنساك.. لكن سأحاول!!.

تستند برأسها إلى فخذك: لن أحب أحدًا بعدك. بسبب ما كابدت معك، ما عدت أنام.. من قبل كنت أغوص في النوم، بمجرد وضع رأسي على الوسادة. الآن، أبقى شاردة، أفكر فيك ساعات!.
قابلتها بعد إصرارها على لقائك، ذلك المساء،في تلك الخلوة،وقد اتهمتك بأنك صرت تتجاهلها، ولا تحبها..كنت حزينًا ومتعبًا.

تخنقك بقبلاتها، لا تستطيع أن تجاري شفتيها، تضحك مبتهجة،تمد يدًا متكهربة إلى سروالها. تهتف متضاحكة: إنه موصد بمائة قفل!.
تضيع كل محاولاتك سدى، تجثو عند قدميها، تتسكع يدك فوق صدرها. وفي لهفة، تساعدها في رفع ثوبها، كاشفة لك عن نهدها الأيسر... ولأنك كنت تحلم بها زوجة تبادلك الحب، كتبت إليها في رسالة قصيرة معتذرًا، رافضًا أن يبتذل حبكما شبقًا، رغم النداء الملح، الصارخ في الأعماق: "أن أعاملك كالآخرين،كرجل وامرأة.. فهذا جرم لا يغتفر، يا حبّي الأخير !!".

ولكي تحطم كل شيء...
كتبت لها بأنك مع عاهرة. كنت مدفوعًا بقوة غريبة، وحتى لا تتألم أكثر مما يتحمل جسدك الواهن،و تتخلص من عذابات حب، حكم عليه بالإعدام من طرف الآخرين، كعادة كل قصص الحب الرائعة.. كتبت لها أن العاهرة حائض، وأنك (...) من الخلف، وتخيلتها مكانها...!!.
كنت "كاذبًا" في تخيلك حبيبتك في ذلك الوضع، لكن كنت تحتاج إلى أن تكرهك، بأية طريقة!!.

في مكالماتها الأخيرة، صارحتك بأنها ما عادت قادرة على تحمل تعذيبك اليومي لها، بكلامك الجارح والبذيء... وباسم الحب والغيرة!.
كانت نبرة صوتها حزينة. هو الفراق حان أوانه: "هناك من اتصل بي، طالبًا مني أن أبتعد عنك".
إذن، فلترتشف - يا قلب- دمعك وحيدًا..!!.
ليلتها..
تركل كل ما في طريقك، تسب الأطفال الذين يلعبون الكرة قرب البيت:
- ابتعدوا، يا أبناء الـ...
يتحداك أحدهم بلامبالاته، ترفعه من فوق الرصيف، تدرك عواقب أن ترميه أرضًا، تدعه يلامس الأرض بقدميه..
تحس بأنك في أمس الحاجة إلى هدوء تام، وألا تكلم أحدًا.

في أزمور، تلك المدينة الأطلسية، الصغيرة، ببيوتها البيض ونوافذها وأبوابها الزرق، اعترض سبيلك طفل مشرد يتسول دراهم، يشتري بها لصاق "السيليسيون"، فقذفت في وجهه بذاءاتك المعهودة:
- سير عند القحاب في للا عائشة البحرية!.

في الحافلة الزرقاء رقم 3، المتجهة من أزمور إلى"للا عائشة البحرية"، أصرت فتاة مجلببة على أن تقف أمامك، لم تكن جميلة بما يكفي لإثارتك، حتى استدارات مفاتنها غير بارزة بشكل شهواني.. فقط، وبطريقة آلية، دون أدنى استمتاع،وتعبر لك عن امتنانها، باستكانتها وتجاهلها.. لم تلق نظرة متوعدة، ولا مستزيدة.. كما يجدر ببدوية محاصرة بالصبار، وأعين لا تنام... لم تكن في جمال تلك الثلاثينية، التي

هيجتك، حين لمحت ثوبها الداخلي القصير "البرميدة"، غير منتبهة إلى أن جلبابها - وهي مع الجالسات في انتظار حافلة أزمور- قد ستر ما ستر، وكشف ما كشف!.

كان جمالها عاديًا غير فتان، ترتاح إليه العين، فتشتهي أن تلعق بلسانك بطن فخذها المشع بياضًا.

تعمدت الشابة البدوية أن تجعل أمها وأخاها، يقفان في الزحام أمامها، وقد استكانت يدها إلى دفء ملمس أصابعك في ما يشبه الاحتضان.

لم يحدث أي التحام.. هو بعض الدفء في الزحام.

تدخل ساقك في تجويف جلبابها مابين ساقيها المنفرجتين، تلامس ساقها، وتجعل فخذك يلامس ردفها، تحاول لمس كتفها في ما يشبه الاستناد، تحول يدك إلى خصرها، معبرًا عن امتنانك لتجاوبها المحايد، دون أن تجرؤ على لمس فاكهة صدر، في حجم قبضة اليد.

لم تكن جميلة ولا قبيحة أيضا، لكن حاجتها ملحة إلى... من يتهجى أبجديات جسدها المشتعل خلف ثياب محتشمة، يحدثك قلبك:" لا تعرف فيم تفكر بنات حواء في مثل هذا الموقف، ربما يقلن: يا لك من غبي!! لا تتوقع من امرأة، حتى لو كانت بغيًا أن تقول لك: إني أريدك.. إني أشتهيك!!.

تبًّا لهذا الجسد الذي يجرنا، دومًا، إلى الخطايا..!!".

تلسعك أشعة الشمس، تحس بامتعاض من تلك الطقوس، ومن نسوة لا يفكرن إلا بما بين أفخاذهن..

بجوار ضريح "للا عائشة البحرية"، نصبت خيام مهترئة، على شكل مطاعم، ومزارات دجالين وعرافات، وعبر ممر ضئيل يتدفق جدول ماء عكر، وقدر كبير مفحم، ملئ ماء تغتسل به زائرات الضريح للتبرك. بعضهم يبيع شموعًا وبخورًا. يثير انتباهك اللون الأخضر لمناديل وأعلام تبيع الوهم...

تلمح إحداهن تسوي ساعتها، وحذاؤها على الأرض ينتظر أن تنتعله، شعرها ما زال به بلل، وإلى جانبها رجل أنيق في ريعان الشباب.. تتهجى كتابات بالحناء على الجدران البيضاء للضريح: أسماء شباب وشابات يحلمون بالنصف الآخر. يأتيك هاتف من الأعماق":لم تصدق النساء تلك الخرافات، التي تتعلق برجل يقيدنه بحبل شرعي؟ أي عبث أحمق أن يبحثن عن ضالتهن عند رجل يحتاج إلى رجل؛عند ذلك المجذوب المخنث - والعهدة على البائع المتجول- الذي يرى الطالع، وأشياء أخرى لا تعنيك، لكنها تعني الكثير الكثير لنساء، يلهثن وراء رجل يدفئ فراشهن، فلا يرين أبعد مما تحتهن...".

تفكر بصوت مرتفع: لو أجري أي استطلاع تلفزيوني عن هذا الضريح،هل سيسمح بتصوير ذلك الكم الهائل من الثياب الداخلية، التي أغلبها أبيض اللون، وسط الأشواك والنفايات البشرية، يتخلصن منها بعد الاغتسال، كأي شيء منحوس؟ هل يمكن تصوير امرأة، وهي تتبول بين أشجار الشوك؟ أم ستركز الكاميرا على بعض الأزبال المتناثرة هنا وهناك، على الرمال، ونهر أم الربيع، وهو ينساب في هدوء تفتقده الدواخل، معانقًا المحيط الأطلسي على إيقاع الدفوف والأهازيج الشعبية، وعربات "الكارو" تجرها الأنعام،مؤثثة مشهدًا سياحيًّا رخيصًا؟ تبصق على

الأرض، وتغادر المصطاف كئيبًا، بعد تناول السندويش وبعض "الدردشة" مع البائع، وتندفع في اتجاه الحافلة.

في أزمور، تحاول أن تستمتع بوقتك، بالتيه في فضاء زمكاني جديد. تتوصل بمكالمة هاتفية من صديقك الفاسي محمد، يعاتبك على أنك لم تعرفه على منتجع سيدي بوزيد، تتخيل أنه سمع عنه الكثير هناك.. تجيبه: أنا، الآن، في أزمور، بعيدًا عن تلك المدينة- البغي... بشواطئها.

في فندق صغير بسيدي بوزيد، عرفت من المعاشي أن صاحبه مسؤول كبير في مدينة أخرى! تندهشعند رؤية علامة خمر شهيرة علقت على المدخل، وقراءة أسعار خيالية لخدماته المعروضة، وقد كتبت على لوح دعائي صغير، طالبت المعاشي بأجرة مضاعفة، رد: إنه يأخذ ما يشاء من شراب روحي في حضوره.

فوق سطح الفندق، وزعت - بانتظام - كراسٍ وطاولات بلاستيكية تحمل شارة البيبسي كولا، ومظلات، ومغسلة صغيرة، ثلاجة معطلة، مزهريات فخمة، وأعلام ملونة ترفرف فوق الواجهات الثلاث للمبنى، تلمح رجلا وامرأة، وبنات يلعبن تحت مظلات شمسية، تتطلع إلى بقية الفيلاتالتي لا يفصلها عن البحر سوى خطواتٍ، تتداعى الصور والأحاسيس، تتذكر قيظ المطار المهجور، حيث تختبئ العصافير والحشرات زوالا، فلا تصادف - في طريقك إلى العمل- غير نفايات المكانوأشواكه، وحجارته، وأكياس بلاستيكية بالية.

يطلب منكما أحد الموظفين - أنت وزميلك- أن لا تحدثا أية ضجة، و أن تؤجلا عملكما حتى لا توقظا النزلاء. تكتم مشاعرك الغاضبة،تزأر أعماقك في صمت:

"يِلعنْ...يا ولد القوادة!".

في انتظار المعاشي، تبذر توترك متسكعًا، تلمح شابة تغادر الفندق، بثياب تفضح مفاتنها، وفتاتين تتأهبان لركوب سيارة فخمة، شبه عاريتين.. تفكر: إن عبارة (مجتمع عربي مسلم)، أسوأ وأطرف كذبة سمعتها!.

يبدو زميلك مستمتعًا بما حوله، تغالب غليانك الداخلي، وهو يسألك عن رأيك في إحداهن، ترد عليه بجفاء: "لا أحب العاهرات الـ"خمس نجوم"!.. (تنفخ غيظًا) هذا الخراء لمعاشي تأخر..."!!.

تلفظك حافلة أزمور، تحس بألفة غريبة حين تطأ قدماك أرصفة مدينتك، تدرك بأنك تحبها، رغم كل عيوبها، يهتف قلبك: ما أغرب الطبيعة الإنسانية!.

يتضاعف تعبك، تمني النفس ألا تتأخر الحافلة رقم 3، تلمح تجمهرًا بشريًّا، وسيارة الشرطة عند مدخل أحد الأزقة، يلتهمك الفضول.. يحوقل شيخ، تلطم إحداهن خدها، تسري في جسدك رعشة، حين تعرف أنه عثر على رضيع، متخلى عنه... في سلة، ينام قرير العين. تصيح حيزبون، وبلا حياء : " النساء لا يجدن غير رفع أرجلهن، دون التفكير في العواقب". يقهقه الشباب. تتساءل: "هل يعرف - الآن- ما تخبئه له الأيام، وإن صار ملاكًا - في حال وفاته - ربما سيطلب الغفران لأبويه، حتى لو أخرجاه إلى هذه الحياة، بطريقة غير شرعية. الحياة جميلة! لكنه قد يصير مثل ذلك المتشرد الذي يتسول، بثيابه المتسخة، ونظرات الآخرين إليه تطفح احتقارًا، عقابًا على ذنب لم يقترفه، وقدر لم يختره "!!.

ينتشلك من حوارك الباطني ضحك رفاق، وهم يتطلعون إلى امرأة، غادرت الحافلة للتو، مشيرين - بأيديهم - إلى تلك البقعة اللزجة.. تشد جلبابها من الخلف،فتبرز استدارة عجيزتها الفاتنة، تلقي نظرة جانبية على خلفيتها شاتمة: "الله يعطيهم (الكونصير) في... ".

2

عوى الكلب متوجعًا حين ارتطم به سطل قصديري، تستخدمه الجدة عند حلببقراتها، ردد سبابه المعهود، بنفس الملامح العابسة : "الله يلْعن جدباباكم كامْلين". تجهل سبب ثورة الخال، التي جعلته يضرب بقدمه سطلالحليب، كما تعودوا تسميته.

في مخيلتك انطبعت صورة رجل جاد أكثر منااللازم، يحرص - دومًا - على أن تبقى تعابير وجهه قاسية في "الخيمة" و خارجها، ولا تعرف سر تهجمه الأزلي، لعلها استقامة سلوكه، ربما يكونالوحيد الذي لم يتعب جدتك - كبقية الأخوال- في طرق أبواب العرّافات، لتعرفمن جعلن فلذات كبدها يهجرون البيت والأهل...

ذاكرتك الطفولية الغضة، تجود عليك بصورة صبي - كنته- عرف من ثرثراتهن : أمك، جدتك، وزوجات أخوالك عن صويحبات... تحاول جاهدًا، الربط

بينفكرتين غريبتين عمّا تربيت عليه: انقلاب أحوال أخوالك، السكر والعربدة، النساءوالشبق.. وأمك - نزولا عند رغبة جدتك - تأمرك أن تطرق باب قريبتكم،وتبلغها أن "تبعد" ابنتها عن أخوالك الثلاثة... ثلاثتهم كانوا على صلة بها !!.

(تعوزني الكلمات، ولا أستطيع التعبير عما يخالجني. لا أعرف لم يتحدث الكثيرون عن مثل هذه الأشياء بكثير من الزهو..؟

أمك تردد دائمًا: إنك، وخالكأنجبتكما امرأة واحدة. تضحك في سرك، رغم حرصك الشديد على ألا تقلد أحدًا، وأن تستقل بشخصيتكعن الآخرين).

عوى الكلب، والسبب زوجة الخال. من خالتك الصغرى، التي انسحبت منالمشهد الصاخب، يكاد الدم يفور من خديها وهي تكبح جماح ضحكها.. تعرف منكلامها المتقطع أن سبب ثورة أخيها الأكبر: الممرض الذي حضر كالعادة، فيموعد الحقنة، ولم يكن في البيت رجال.. الصغار مع الجد المنشغل بينحقوله، لكن شيئًا واحدًا يشغل بالك -هذه اللحظة- لا تعرف إن كان خالك علىصواب أم لا، وهل ستغضب الجدة، بسبب الخسائر الفادحة التي لحقت بسطلهاالأثير، رفيق الصباحات الطرية؛ السطل ما عاد يصلح - وبسخرية البدو- سوى لأن "يبزق" عليهالدجاج؟ ما ذنب الكلب المسكين إن كانت الزوجة مدللة، وذاكرة الطفولةلا تستوعب هاجس أن يسرق الممرض بضع لحظات بهجة من التلصص على حليب الجسدالبض، وكم دوخك جمالها، قبل أن يتزوجها خالك!؟.

الألواح الخشبية المهترئة تئن تحت مطرقة عمك، تعرف أنه لم يعديطيق أخوالك، بعد قبولهم صديق طفولته زوجًا لأختهم، بعد أن سرقهامنه، رغم أنه خطبها قبله. هذا سبب كافٍ لأن يكره عمك زوج خالتك مدىالحياة، وأنت لا تطيقه، حتى من قبل أن يصير زوج الخالة. عمك، كان صديقه الوحيد من بين أبناء العمومة، لا سيما وأن كل شباب الدواريجري في عروقهم دم واحد، دم جد أبيك وأمك. تخمن أن سبب ابتعاد (خ) -والذي سيصير زوج خالتك - عن أقرانه أنه الوحيد الذي كان متعلمًا،وصداقتهما الصميمية انقلبت عداوة بغيضة.

تصهل الشمس في كبد السماء، يسرد العم تفاصيل ما حدث، وضربات المطرقة تفضح توتره الداخلي. طال انتظار زوج الخالة، الأكل بدأ يبرد، الصغار يتخاطفون لقيمات الخبزوحبات الزيتون الأخضر، وجدتك تحرص على ألا يتغذوا قبل حضور سعادة زوج ابنتها، والجد بلا رأي!!..

الجوع صار عدوًا لدودًا تحت رحمة انتظار طال، انتظار زوج، كان خالك الأكبر،الوحيد الرافض لتزويجهم الخالة بتلك الطريقة. تفكر: "أحيانًا، نقبلبأشياء مخزية، ربما حتى لا تلتصق بها صفة : عانس، والعانس شجرة لا تطرح ثمارًا". تضرب الجدة أعز حبات قلب خالك، بعد أن كادت أن توقع شيئًا ممّا فوق

المائدةقصيرة الأرجل، وهي تستند بيديها عليها، كما يليق بمن تتعلم المشي. دونأن يدري، استوى واقفًا، وبحركة رشيقة، رفع الصحن من طرفه، فانقذف أمامباب الحجرة، وانقض الكلب والقطة على غنيمة لم يحلما بها من قبل...

تغمغم: "شكرًا للسماء ولعصبية الخال"!!.
وتنفجر ضحكًا.

هذه الحكاية، تستروا عليها، كأشياء كثيرة مسكوت عنها، لا ينبغي أنيطّلع عليها الآخرون، كزواج غير متكافئ، رزقهم صهرًا يزروهم فقط من أجلبطنه،"يغسل مصارينه"، بتعبير عمك الأصغر، والوحيد الذي، بحكم رفقةالعمل، لا تتحرج من التفوه في حضرته بكلام نابٍ:

- سمـّرْ هاذالقْـ...، أنا جاي!.
ضحك"التـباري"،البناء الكهل الخمسيني، وملح الورش، حتى دمعت عيناه، حين سمع تلك الكلمة، ونهرك باسمًا:
- تاحشم من عمك.
تتداعى جدران ذاكرته..

تلفظ التباري بنفس الكلمة، وزوجته تطالبه بجلب"عْدال" ماء من بئر الدوار، بنبرة جافة رد عليها : ما ساكَي حتى قَـ...!!.

تتطلع إلى هاتفك الخلوي. الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا: "غادي نمشينكمل هادوك الضربات".

تتأمل بابتهاج حوض الأسماك الملونة في انتظار أن يفرغ أحد الأجهزة..إحدى السمكات تطارد إصبعك من خلف الزجاج، الأخريات مذعورات، تطن في رأسكعبارة صاحبة المقهى نت: إنها تعودت على ملاطفات الزبائن. يشرد ذهنك.

نـانـا... ذلك المساء، كانت حزينة.
سألتها: إن ضايقها زملاؤها مرة أخرى.. بعروض الصداقة، الرغبة في التعارف، حتى صارت تفكر فيأن تلازم البيت.

- لا. ليس هذا السبب.. اليوم ماتت سمكتي !.
- ربما من الوحدة...
- ربما.
- وطبعا كانت من نصيب قط الجيران الذي طالما اشتهاها.
- هههه. لا، لقد دفنتها فيمزهريةبالحديقة، يا "هبولي".
تبحث عن أي شيء يبذر كآبة المساءاتالرمادية... تكتب:
- لقد تعرفت علىامرأة أخرى، وكل دردشتنا "قلة أدب". هههه.

بعد لحظة انتظار ثلجي، كتبتْ: لا أصدق.
تلوذ بصمتك الصاخب، تفكر فيأن تستفزها:
-هاتِيبـوسة..
تحتمي بسكينتها لحظات، ثم:
-صرت أخاف منك. أنت لا تختلف عن الآخرين!.
- منذ مدة، لم تضعي صورتك هنا...
- تحجّبت..
- سبق أن رأيتها، رغم أنها لم تكن واضحة.
- تلك قديمة..
- يا لئيمة، أمزح معك. تعرفين أني أحبك من دون أن أفكر فيك كامرأة.أنت الشيء الوحيد النقي في حياتي، ولست كبقية "شراميط" الكتابة..
تصمت، تخمن أنها تقرأ - بتمعن-كلماتكما المتقافزة على صفحة الدردشة..

الأمهات غادرن بعد انتهاء "دردشتهن" مع إحدى القريبات. البنتانالصغيرتان، تتصفحان موقعًا. شيء ما يجعلك تحس بالمسؤولية تجاه بناتأخوالك، تقترب من الشاشة.. أزياء عرائس، وبستان ألوان، وحواء متأرجحةبين طفولة غاربة وأنوثة مشرقة. تنتبه إلى أنه منتدى. بعد تفحصردود، تسألها إن كانت عضوة مشاركة، تحرك رأسها نافية.. أحدهم أقحمنفسه وسط عرائس المنتدى، واضعًا إيميله لا غير كرد، وآخر اختار عنوانالمسنجر اسمًا. تقول لنفسك: "حتى الصغيرات يا عرب، يا أبناء العاهراتتلوثونهن..!!".
بحركة عصبية، تهز لوح المفاتيح، طالبًا منهما مغادرة المكان فورًا،لاعنًا كل شيء، رغم تأكيد الصغرى أنها لا تبالي بتلك الأشياء.

وتحس بوخز في الأعماق.

ككل ليلة، تتشاجران...

- أعرف أنك تحبينني، لكني لا أطيق أن أقرأ تحت كتاباتك قصائد غزل من أولادالقحاب. من أين حصلوا على إيميلك؟ لا شك أنهم يكاتبونك كل يوم، وإلا بمتفسرين هذه اللوعة؟ وهذا الإصرار الغريب على أن ينسوا قلوبهم تحت كتاباتك.طبعًا ليس شعرًا، هي كلمات تكفي - فقط - لكي تفتح أية عاهرة فخذيها، وحينيفرغ منها يبصق في وجهها...
ما علاقة ما تكتبين بتعاليق مراهقة، وسبق أن طلبت منك الابتعاد عن النشرفي تلك الأماكن الرخيصة. أرجوك، توقفي عن كتابة تلك المراهقات..المشاعر الجميلة نحتفظ بها في دواخلنا، لا نذيعها.. لا تنسي بأن الحب فيمجتمعاتنا الشرقية هو الوجه الآخر للعهارة.

- هل تراني عاهرة؟
- يا عزيزتي، لا تؤولي كلامي حسب هواك. مللت، مللت، كل يوم معجب.. لم

أرَلهؤلاء الكلاب مثيلا. عادي جدًا أن يغازل رجل امرأة، أن يمتدح جمالها،لكن أن يكتب لها بلوعة عن عذابات و..و... فهذا كثير !! سأموت قبل الأوانبسبب عشاقك الميامين، هم يستمتعون بلعبتهم الضوئية، يمارسونها مع ألف امرأة كليوم، ويحرقون أعصابي. أنا رجل غيور جدًا، ولا أصلح للحب.

- لأول مرة، أحس بالمهانة.لم أسمح لأحد -من قبل - بأن يتحكم في حياتي ويهينني مثلك.

- قلت لك : دعيني وشأني، لا أريد أن أحب امرأة عرفت آخرين قبلي.. لا أحتمل أنيعلق على كتاباتكأحد حتى لو كان جبريل عليه السلام!.

يبدو أنها النهاية.لنفترق..

- دائما تهددني بالفراق، و تبحث عن أي مبرر لتعود إلى حبيباتك السابقات.

يأتيك صوتها - من الجهة الأخرى - متحشرجًا، وهي تجهشفي بكاء، يعصر قلبك.

- كل يوم تهديدات وإهانات، كل يوم تعذبني..

-هذه طريقتي الوحيدة في التعبير عن حبي المتطرف. لا أجيد الغزلالذي تعشقه النساء.. إنهم ينتظرونك، لا تتأخري عليهم، ردي على رسائلهمالإلكترونية الحارة، وأعطيهم مواعيد للدردشة. دقيقة. سأحضر لك رابطًا.هذه العاهرة، مثلا - تصفحي الرابط - لا أنكر أني أحببتها، فاكتشفت أنيمغفل كبير : الرجل الذي تهاجمه أمام الملأ ، في المنتديات، واصفة إياهبـ: "كازانوفا"، تعشقه، وتفعل ذلك لأنه هجرها.. هو من أرسل إلي رابط إحدىقذاراتها قائلا:" شوف الشرموطة كاتبة إيه..!!"، ليجعلني مخلب قط،وهاهي تنشر صورته إلى جانب صورة طفليها في مدونتها.. تخيلي امرأة تكرهطليقها حتى الموت، وتعبد رجلا ينظر إليها - مثل بقية النساء- كعاهرةلا غير. كم أكره هذا العجوز الكلب!!.

- هو رجل نذل، وهي أعماها قلبها... إن كنت قد أحببتها كما تقول،لا تسئ إليها،ترفّع عنهامن أجل ابنيها!!.

امتقع لونك، تدفق لعابك غامرًا لوح المفاتيح، وكل الحقد الأسود تكوم فيقلبك: تفووو.

-كلكن تدافعن عن ماضيكن، عن العهارة باسم الحب!!.

- أنا لا أفتح فخذي لأي رجلأصادفه في الطريق. تجاهلت كل الإغراءات، لأنني أحبك.. لا ذنب لي في عقدك النفسية وتجاربك السابقة!.

تستمع إلى أغنية عاطفية تمزق قلبك، تخفت حدة كلماتك، وبصوت متهدج،مبلل بالدموع تهتف : "أحـبـك".

سألك عمك عن سبب شرودك الحزين هذا الصباح،لم تصارحه بأنك لم تنم جيدًا.. سيسخرون منك إن قلت لهم: "إن امرأة بينك وبينها مدن، بحار، وجبالأحبّتك، وعاهدتها على الوفاء، و"اختصرت فيها كل نساء الكون".

تنفض عن ثيابك الغبار، تصعد درجات السلم برشاقة، تهلل وجه صاحبةالبيت بشرًا، حين لمحتك واقفًا، متأملا " المعلْمين"، تترجاك أن تنهيأشغال الترميمات في بيتها، حتى ترتاح من الفوضى. يسود المكانهرج عندرؤيتك..
- لحظة. لقد اشتقت إلىميمي...

تتأمل الحقيبة الوردية، الصغيرة، المعلقة في عنق كلبة لا تتجاوزقامتها قدمًا، تحرك ذيلها في حركات متسارعة، معبرة عن ابتهاجها. صاحبةالبيت تؤكد للرفاق أن "ميمي" تعلقت بك.. تدس أصابعك في جوف حقيبتها باحثًاعن قطعة جبن أو شوكولاتة، يضعها ابن صاحبة البيت كلما اصطحبها معه إلىالشاطئ : لم تتركي لي أي شيء، يا بنت الحرام!.
تتقافز واضعة قائمتيها الأماميتين فوق فخذيك..
- عمرها خمسسنوات، وابني متعلقبهاحتى الجنون.
توضح:
- ألفةخمس سنوات ليست شيئًا هينًا، إنها صارتمثل زوجته.
- وهددني: لو حدث لها أي مكروه، بألا أربوجههأبدًا.. أحيانًا، أقسو عليها حين تعكرصفو مزاجي.
علق أحدهم : التعلق بالكلبة أفضل منرفاق السوء و...
تمد أصابعكإلى عنقها، تتأمل حقيبتها الصغيرة، وهي بين يديك، وبحركة بهلوانية تلوّح بها: سأذهب إلى السوق.

ألا تحتاجون لأي شيء؟!.
ينفجر المكان ضحكًا.
تضع صاحبة البيت يدها على خدها، تغالب ضحكتها، مغلفة رجاءها بجدية لا تليق بها كامرأة، كي تنهي عملك، مشيرة إلى أغراض البيت المتناثرة هناوهناك.

3

قبل أن يشرع في عمله بادرَته مستفسرة :"أظن مزاجك غير متعكر اليوم، ليلة البارحة، خفت أن تكون قد وقعت".
تساقط ملاط الحاشية العلوية للنافذة - أكثر من مرة- بفعل الجاذبية، وبسبب سمكه الذي صار ثلاثة أضعاف السمك العادي (أقل من نصف سنتمتر) رش فوقه الإسمنت، فغمر الغبار عينيه، صدره و ذراعيه.. نفس الرقعة تقع مرة أخرى، قطعة أخرى ترفض أن تثبت في مكانها. رمى بحامل الملاط البلاستيكي، فأحدث دويًا أشبه بالانفجار عند ارتطامه بالحائط، طوّح بالملاسة أرضًا متفوهًا بكلام نابٍ، وهي جالسة في غرفة مجاورة.. تأملَ شكله في المرآة، وهو ملطخ بالملاط و غبار الإسمنت. سأله أحدهم :

- لم لا تستخدم "الجبس"، سيجف للتو؟
- لا أستعمله، ولا يجب استخدامه في الأماكن المعرضة للماء و المطر.
- يبدو أنك تحتاج إلى سيجارة وكأس شاي، قالت.
- .....
- كل شيء يحتاج إلى أن تتعامل معه بلين!.

قال في سره : "كنت أظن أني سأنهي العمل في يوم، وهأنذا أمضي ثالث يوم في هذا الخراب، سأعمل يومين بالمجان.. في الوقت الذي يرتاح فيه بقية الرفاق، أعمل ليل نهار، ومن أجل لا شيء... أعرف أني منحوس، حتى راحة البدن لا أنعم بها، وجيبي كفؤاد أم موسى.
اللعنة على من كانت السبب! ليتها تموت عساني أرتاح، ويرتاحون أيضا!!".
تكرر صاحبة البيت السؤال :

- هل أقلقتك؟

صمت لحظة.

- لا. لا شيء.. فقط أمي مريضة.

ولم يهتم بسماع بقية كلامها، ودعواتها بشفاء كل الأمهات، لأنه اختلق كذبة المرض، و طنّ في أذنه كلام أمه وهي تعنفه :

- أين هي نقودك؟ ماذا تفعل بها؟ هل تدخن الحشيش؟..
- تلك الدراهم التي يجود بها، لا تكفي لأي شيء!.

مساء، في المقهى.. بدا مكتئبًا غارقًا في شروده : "ثمن فنجان قهوة يجعلك تحس بألا جدوى منك ومن وجودك.. !!".
مع أصدقاء أخيه الأصغر، المنتشين بفرحهم ونجاحهم في البكالوريا، يودون أن يترجم آباؤهم احتفاءهم بنجاحاتهم دراجات نارية، سلبت عقولهم في المصطافات، حتى لا يحسوا بأنهم أقل من أولئك الذين يتباهون بلعبهم : دراجات وخليلات..

- لا يعنيني ذلك، حتى لو كان يقودها وهي على عجلة واحدة. لازلتم صغارًا، ولاتهمني تمثيليات الاستعراضات البهلوانية وحرق المراحل. لم أعد أفكر في أي شيء!!..

مر حمار ضال يطارده أطفال أشقياء، وهم يلسعون ظهره بالعصي والحجارة، وهو يهرول أمامهم مذعورًا..
- طيب، ما رأيك في هذا "السكوتر" ؟
ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة رغمًا عنه، راودته فكرة أن يعترض سبيلهم ويؤنبهم. تجاهل الأمر اتقاء سخرية رواد المقهى، قائلا لنفسه: "إنه مجرد حمار أجرب هزيل و "مْديني".. لو كان حمارًا قرويًا قحًا، لما تجرأوا على الوقوف خلفه!!".

قبل لحظات، بين اليقظة والنوم، في فراشه، وهو مستسلم لإغفاءة الغسق اللذيذة، رأى بيتًا غير محدد الملامح. وقف أمام بابه. لم يلتفت إلى جدرانه. لم يكن مهمًا - كما في الحلم - إن كان بيتًا حديث البناء أو من البيوت القديمة، المبنية بالحجر و تراب "بياضة". كوخ بناؤه وسقفه من أعواد وقش ما زال مبتلا بقطر الندى، وسط حقول خضراء تلمع تحت شمس، ترسل أشعتها الصباحية الذهبية في غنج العرائس.. مشهد الحقول وشمس الضحى وهو يقف قبالتها مفتونًا مأخوذًا، تجود به ذاكرة تحتمي بالطفولة، البهاء والنقاء، كلما حنّ إلى مسقط رأسه.
ليس بينه وبين بيت القش سوى بضع خطوات، وقريبًا منه رجل لم يرَ ملامحه، كان مدبرًا، يرتدي جلبابين رثين، وقد تمزق الجلباب العلوي من الجانبين حتى الخصر، كان حافي القدمين مغبرهما، يكاد الرائي يلمح تشققاتهما من خلف، يمشي في اتجاه مطلع الشمس، والسماء أصفى من عين الديك، عاقدًا يديه خلف ظهره. وفي الحلم، تساءل عن سبب وحدته وتواجده في هكذا مكان.. حدس أنه عازب ووحيد وكهل، ومنبوذ بعيدًا عن "حريم الدوار"، ومهمش اجتماعيًا. لا يرافقه غير كلب يغط في نوم عميق، في ذلك الصباح الحلمي،وقد حشر رأسه بين قوائمه متكومًا مثل ثعبان.

قد يكون جد أمه، والعم دائمًا يحكي - بتشفّ دائم- عن ابنة "الخماس" وخادم القبيلة التي صارت تنهى وتأمر. تفهّم حقده على الجدة، بيد أنه لا يستطيع أن يتفوه بما يصطخب بين جوانحه، لكي لا يجرح مشاعر عمه، لكن ما يرعبه أن ينتهي به المطاف خمّاسًا، يعيش في كوخ منعزل كهذا.. هل يرضخ لابتزازات أب يعبد "نسيبته" أم يبحث عن مورد رزق آخر؟
كلما حدثه الأصدقاء عن استيعابه لتصاميم الخرسانة المسلحة، و العمل كـ"شاف شانتيي" (قائد فريق) في الشركات بأجر محترم دون أدنى مجهود عضلي، ليبني مستقبله بعيدًا عن أب يقص جناحيه باستمرار، حتى لا يحلق بعيدًا عن العش.. ثارت ثائرته، منهيًا الكلام بعصبية: "أرجوكم! أغلقوا هذا الموضوع!!".

عكست ملامحه انفعال دواخله، وهو يتمدد فوق كرسيه كالوجع الذي تمطط في قلبه هذه اللحظة، وضع ساقًا فوق ساق، وطلب من أصدقائه الصغار أن يتركوه وحده، غارقًا في عالمه الخاص..

زمن آخر...

صباح شتوي. السماء ملبدة بغيوم داكنة، تبعث في النفس أسىً غامضًا. شبابيك الجيران ما زالت تغط في نومها العسلي. إنها الساعة السابعة صباحًا، وما زالت بعض الظلمة الخفيفة تطوق المكان، والبرد القارس ضيف ثقيل في مثل هذه الصباحات الكئيبة.. يلسع الأيادي ويصفع الوجوه. غيّر ثيابه، وفي الحلق غصة.. نفض أسمال العمل، اندلعت عاصفة غبار أبيض، سأله رفيقه ضاحكًا: "أكنت تتعارك مع الكلاب؟"، ملمّحًا إلى ثياب العمل التي تتمزق بسرعة.لم يرد عليه، تثاءب، وبصق بلا لعاب.

بحث عن بقايا أكياس الأسمنت، وطلب قداحة من أحدهم..

في الطابق العلوي سمع أصوات ارتطام المطارق بحديد "الشرجوانات" ممزقًا سكون الحي. تناهى إليه صوت أحدهم يفك ألواح السواري، قائلا: انهضي يا قُحَيبة. كفاك نومًا!!.

قاصدًا الجارة التي تتباهى بنشر ثيابها الداخلية في حديقة الفيلا الخلفية، على حبل الغسيل كل ساعة.. استحضر كلامه عنها، كلما رآها تنشر فتنتها: "يبدو أنها "تسيح" من تحت مثل قربة مثقوبة!!" .

حاول أن يغتصب ابتسامة، لكن عبثًا...

أطل برأسه من فوق آخر درجات السلم الخشبي المتهالك، لاح له فوق السقالة المحاذية لجدار الواجهة عمه و عبد الرحيم.. قرينه الأقرب إليه في التفكير من الآخرين. كانا يتحدثان في انتظار أن ينتهي"كبالا" و ابن عمه "بْعية" من عجن الملاط. خمّن أنهما -كالعادة - يتحدثان عن "قَبْقَب" وكراهية عمه له، من أجل زعامة وهمية للورش. تذكر أنه ينسى صفة "ابن الباطرون"، لا يفكر في الاستعلاء عليهم، يرتاح إلى العمل مع مصطفى قبقب.. لأنه طوّر مهاراته في النجارة المسلحة (الكوفراج)، عكس عمه الذي يعامله مثل أبيه، كأنه لا يصلح لأي شيء.. لا يصلح خليفة له، ويضحك مع العمال.. يعفي نفسه من التفكير في تلك الزعامة في وجود عمه أو قبقب، إن تواجد مع أحدهما في ورش واحد أو التقوا - ثلاثتهم - في ورش واحد.

العم يتهم قبقب بأنه "سْرابسي"و"كَايْدَور التابع"، (يغش في العمل، و عند حضور رب العمل يتقرب منه، كجرو يتمسح بالساق، متظاهرًا بإخلاصه وتفانيه في العمل).

لا يهمه إصدار أوامر وتعليمات بلهجة متعالية، ثيابه الممزقة تدل على ذلك.. فقط، يحس ببعض الغبن حين يقارنون بينه وبين ابن المقاول"عْبيقة"، المتعجرف الذي يقود سيارة أبيه، بهندام أنيق ونظارات سوداء، لكنه لا يفقه شيئًا في

"الصنعة"، يقولون، وربما لا يجيد فك شفرات تصاميم البناء والخرسانة المسلحة أيضًا.
كل هذا ليس مهمًا.

نهر "بعية"، القزم العشريني الأشبه ببرميل، وهو يتندر بما حصل في دوار "الدحوش" في غيابه بالأمس قائلا :
- الصباح لله .. تثرثر في كل الأوقات مثل المذياع!!.

من إحدى زوايا الورش، جاءه صوت "قبقب" معقبًا :
- إنه يعوض الساعات التي ضاعت في النوم ولم يتكلم فيها... "راهْ كايْباثْ يتْشارجا في الليل".
ولمح مصطفى قبقب يفك - وحده - ألواح السواري قائلا لشخص غير مرئي:
- واااانبيل .. تا شد المادرية أولد الحرام. عِنْداك تْطيّحها.. الله يلعن والدين أمك!..

تناول نصف آجرة، جلس قريبًا منه ملتقطًا أنفاسه. لكز عبد الرحيم بكوعه العم قائلا :" البَشْرة"[1] دايمان كاتكون نهار السبت و"دكَان اللفتة"[2] "، وضحكا حتى دمعت عيونهما لمرأى ملامحه نصف النائمة، الثملى والمتجهمة.
- الهم إلا قوا تايْضحك !.

علق العم، وكانا يتحدثان - بقلق - عن "الضالة" [3]التي سيعملون فيها حتى وقت متأخر دون ربح، ولو ساعة واحدة.. لعلوها وعطب الآلتين المتعاقب، واستغراق الباطرون في النوم يوم "الضالة"، على غير عادته، حتى يبدأوا فيها متأخرين. وفي الصباحات الأخرى، يتقافز، هنا وهناك، تحت جنح الظلام.

لاحت جماعة عمال منهمكين في جر الخلاط الآلي - متصايحين- نحو مكانها، أسفل الرافع الآلي الهرم وهو على شفير سطح الورش، استحثهم أحدهم أن يعملوا بسرعة علّهم يربحون ساعتين أو ثلاث على الأقل، فلديهم ما يكفي من أشغال، وعند رؤية "العطاش" حمودة، الشيخ الواهن.. علق العم باسمًا، رغم المرارة والتوتر: ها اللي قلنا. كا يْقلبْ غيرْ على المعدْمين والشايْطين. شوف العطاشة اللي جايب. غادي نقراوْ مع الطلْبة.
لعلعت قهقهاتهم، فوحدها تلاوة القرآن تحتاج إلى شيخوخة حمودة.
سرى بعض الدفء في الأجساد، بدأوا يتخففون من معاطفهم، أشار أحدهم إلى أن يشرعوا في جمع "العشرات" لإعداد الفطور.. طاف عليهم "بعية". التِبارِي - كالعادة- فتح حافظة نقوده بحرص شديد، حتى لا يرى أحد صفائحه المعدنية، بحث عن قطع نقدية صفراء، عدها أكثر من مرة، تلكأ متسائلا عن ما بقي من طوبات سكر أمس.

---

[1] يقصد هنا العكس، أي العبوس.
[2] الغش في العمل.
[3] السقف.

التفوا حول غلاي علت نصفه الخارجي السفلي قشرة سوداء من الدخان المتفحم. تفحص "بعية" سلته وهو يضعها بقربه، متمسكًا بها، تمامًا مثل طفل يمسك بطرف جلباب أمه خشية أن يتوه، تأمل الرفاق خبزة في حجم عجلة، علق "كبالا" متهكمًا:

- مضيّع خوتك في الزْرع، أمسخوط الوالدين.

رد عليه مصطفى قبقب :

- راه هو اللي خدام عليهم.. خليه ياكل باش يقدر يخدم.

تساءل التِباري عن بقية الكؤوس، التي يخفونها فور انتهائهم من شرب الشاي، وهدد بتكسيرها كلها.

صاح "كبالا":

- هذا كأسي، لا يقربه أحد. ضعوه..

تدخل العم مقترحًا عليه أن يترك لهم الكأس مادام يفطر بـ"منعش"، متأملا خبزتيه و"كبالا" ينهشهما كذئب.

بدأت الأصوات تعلو في صخب.

رفع عبد الرحيم قدحًا، وتهجى الرقم المطبوع تحته.

- هذا كأسي، لا يشرب فيه أحد..

عنف "كبالا" عمه التباري : "حط ليا كاسي، أ التباري. واش انت بارك تشري في البْلاد، وما قاد تشري كاس بجوج دراهم!!"، وأمسك بـ"المقراج" مهددًا برميه.

صرخوا في وجهه دفعة واحدة، ملوّحين بعصا الغرامة.. أشار إليه عمه أن يبحث عن أية قارورة بلاستيكية أو قنينة مربى: "لماذا كأسي الذي يتهشم دائمًا؟".

كل الكؤوس تتخاطفها الأيدي، إلا كأس مصطفى.

عرض عليه أن يتناوب معه في الشرب، غمز له العم بعينه ألا يقربه.. ملمّحًا إلى أصوات أشبه بزقزقة العصافير يرددها قفصه الصدري، و أسنانه تصطك، فيسمع لها صوت كطقطقة الحطب في النار، يصاحبهما شهيق وزفير متداخلان. أثارت حالته انتباهه وهو يعمل معه، ولم يود إحراجه بالسؤال..قلده "كبالا" خلسة ممططًا فكيه، انتبهوا إلى حركته، رماه التباري بطوبة آجر موبخًا، وروى حكاية بناء، لا تكف كتفاه عن الاهتزاز، من يراه - من بعيد- يخيل إليه أنه يرقص طربًا.. نام في صباه - وهو يرعى الغنم - فوجدها الأب ترعى في حقل الذرة، وفاجأه بضربة بسوط! الآن، هو في عقده الخامس، ولا زال يرتعد وحده منذ تلك اللحظة!!.

استوى "كبالا" واقفًا، ربت على بطنه المتكور أمامه :

- كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون.

تمرغوا ضحكًا، وهو يستشهد بآية كريمة تلائم شراهته، وحبه للأكل فقط، ناوله "بعية" قدحه..

- صب له الشاي هنا...

تأمل الفتات العالق بحواشيه، صبه أرضًا في حنق، وفارقهم..

عاد من دكان مسعود، البقال المجاور، حاملا كيسًا بلاستيكيًّا أسود..

أطل عبد الرحيم من الشباك، لعق بنظراته عجيزة الجارة وهي منحنية، تجمع "التشطيبة" من أمام بيتها.

- وا بليزة عندها!!.

عند سماعهم كلمة السر : "بليزة"[4]، قاموا - عزابًا ومتزوجين - باحتلال النوافذ، متلصصين على خيراتها الفائضة من تحت سروال، يخنق تضاريس وعرة.

صرخ "بعية" في هياج :

- أححححاااحححح.

نهره عمه :

- دايما تنقول ليك: ملي يهدر والناس قول الله يرحمنا.

وتكوموا فوقه جميعًا راكلين، صافعين، متضاحكين وهو يستغيث بأعلى صوته.

ظهيرةً، والشمس في منتصف السماء، تمدد العمال تحت ظلال الجدران و صفائح قصديرية أو ألواح أو ورق مقوى نصبت على شكل واقيات شمسية.. مفترشين الأسمال أو أكياس الإسمنت الفارغة.. رنا مشدوهًا إلى مخبول تعود أن ينام في عراء المطار المهجور - كل قيلولة - تحت أشعة الشمس اللافحة مرتديًا جلبابًا صوفيًا خشنًا. تأمل السماء وسحبها البيضاء المتلاحقة، ارتشف شايه بلذة، رأى قطًا رافعًا، عن الأرض، قائمته الخلفية.. ابتسم حين تذكر تعليق التباري ساخرًا : "حتى القط تغارون منه!".

قام بمحاصرته و"بعية"، أثناء موسم التزاوج وهو يزعجهم، أثناء القيلولات، بموائه الذكوري الشبق، لكن "كبالا" رماه بـ"شرجوان"، سبّب له كسرًا في قائمته الخلفية.

حدق في صورة هرين صغيرين على شاشة هاتفه المحمول الملونة، وهما نائمان فوق خرقة بالية، وسط ألواح رميت في غير انتظام. حين لاحت أمهما قادمة لإرضاعهما، أخلى لها السبيل، طالبًا من المتواجدين في الطابق السفلي الابتعاد عن طريقها، سخروا منه: " يا لحنانك، أيها المجرم !.. أنسيت أنك من تسبب في عطب أبيهم؟". في صورة أخرى كشر أحد الهرين عن أنيابه، وانتبه في ذهول إلى أن كل المخلوقات الصغيرة... رائعة الجمال.

فجأة ، تناهى إلى مسامعه وهو غارق في عالمه الباطني هرج خارج الورش.. انقبض قلبه، خيل إليه أنه سمع صوت أحد رفاقه، فاندفع في اتجاه الدرج مع بقية العمال.

4

- [4] حقيبة.

وتأكد حدسه...
قفز الدرجتين الأخيرتين من السلم الخشبي. عند الدهليز وهو ينعطف مغادرًا بئر السلم، اصطدم بـ"كبالا " وهو يتمطى..
كانت تزأر بصوتها الحاد وهي تشد عبد الرحيم من تلابيبه، امرأة في عنفوان الشباب. كثيرًا ما كانت تسرقه من ذاته، وهي في طريقها إلى روض الأطفال، ممسكة بيدي صغيريها. كانت تشبه آخر حبيباته حد الوجع، ذلك الذي ما زال يتمطى في أعماقه !.
حاولت أن تنطح عبد الرحيم برأسها، تدخل "بعية" بقامته القصيرة بينهما، بدا مظهره مضحكًا وسط الأذرع المتشابكة، وبنبرة هادئة رد عليها عبد الرحيم :
- لا أريد أن أؤذيك، يا امرأة.
- لن أتركك حتى يأتي زوجي..
سألهما الرفاق عن ما حصل، وهما يحاولون فض الاشتباك..
- إنه- دائما- "يقل أدبه" كلما رآني، ومن عند تلك الأشواك، وهو... رغم أني قلت له: لا أصلح لك، أنا امرأة متزوجة. وبالأمس أيضًا تعرض إلى طريقي، وأنا عند البقال.
انقضت على آجرة حمراء، سارعوا إلى اختطافها من يدها.. غمز له "التباري" بعينه أن يغتنم الفرصة، يغير ثيابه وينصرف من الباب الخلفي للفيلا.
هم يعرفون أن عبد الرحيم يذهب لقضاء حاجته عند تلك الأشواك الرابضة عند الطريق الزراعية المهملة.
- لا لن أذهب من هنا، وسأقول إنه نشل حافظة نقودي وأجهضني. لن أرحل من هنا حتى يأتي زوجي.
أقسم عبد الرحيم بأنه لم يغازلها، فطن العم إلى أن يتعامل معها بلين. وقف إلى جانبها، حيث جلست على حجر، في انتظار وصول زوجها :
- ماذا ستربحين لو حضر زوجك وارتكب جريمة، وأنت أم لصغيرين في أمس الحاجة إلى أبيهما، وهذا الجنين الذي سيولد وأبوه في السجن؟
بدأ صدرها يعلو ويهبط مع كل شهيق وزفير، امتدت يدها تكفكف دموعًا لم تنتظر أن تنسكب.
تشتتوا، بقيت عند صخرتها أمام الورش، يمّموا وجوههم شطر دكان بقال الحي، والجارات يتابعن من شبابيكهن ما يحدث. تندروا بحركات "كبالا" وهو يحاول فك الأذرع المتشابكة، ويداه تلامسان صدرها، بحركات تبدو غير مقصودة.. سأل أحدهم الجار الملتحي عما حدث، رد بنبرة ازدراء:
- إنهم البناؤون !!.
أحس بعبارته خنجرًا مسمومًا يخترق فؤاده، كأن مهنتهم تهمة، مرادفة لكل ما هو دوني وقبيح، تمنى - في قرارة نفسه - أن يحطم رأسه : " أيها السكير النتن، تتحدث عنا كما لو كنا حشرات، وأنت الحقير تشرب الجعة خلسة في الزوايا الخلفية للحي. أكثر من مرة، رأيتك تشرب غير بعيد عن بيتك، وفي الشارع!.. تتلفت حواليك مثل لص، تدس رأسك تحت سترتك، وترفع العلبة المعدنية من الجيب

الداخلي إلى فمك.. من يراك - عن بعد - يظنك تتأمل الشمس، متفاديًا أشعتها برفع طرف سترتك، تتأمل الشمس برومانسية، قل نظيرها عند إداري سامٍ مثلك".

ابتلع مرارته، وغاص في أعماقه متجاهلا كل ما حوله... غير مبال بالزوج الهائج كالثور، وهو يسأل عمن تجرأ على زوجته جارًّا دراجته النارية المتهالكة.

طاف بمخيلته ما حدث في الحافلة، في أحد الآحاد الكئيبة. كان منعزلا عما حوله، مترفعًا عن كل شيء. على الكراسي الخلفية للحافلة المهترئة تناثر مراهقون، كان أحدهم يلتقط صورًا ومقاطع فيديو بالهاتف المحمول للحسان الكواعب. لمحته إحداهن، همست في أذن الواقفة إلى جوارها، فانقضت عليه مثل صقر، ورمت الجهاز من النافذة المشرعة، وعيناها جمر يلتهب.. أطل الفتى برأسه، لمح هاتفه المحمول متفتتًا تحت عجلات سيارة عابرة، ندت عنها صرخة قوية، عندما هوت كفه بقوة على خدها. اختلط الحابل بالنابل، طالب رفاقه وبعض الركاب السائق بإيقاف الحافلة، ومن خلفهم انطلقت أبواق السيارات مسعورة، احتجاجًا على عرقلة حركة المرور.

لم ينتبه إلى صعود رجال الشرطة، وهو يتصفح هاتفه المحمول. انتشله منه أحدهم بحركة مباغتة، وهو يطالبه بأوراق هويته.

- لا أظن أن شخصًا كئيبًا وبائسًا مثلي قادر على شراء هاتف من نوع فاخر، يا سيدي. أنا لا أبتسم حتى في وجه المرأة التي أنجبتني؛ أمي، فكيف أنظر إلى مثل هذه ...؟

تصفح الشرطي مليًا بطاقته. سأله عن مهنته، رد عليه بلهجة جافة :

- "حوفار".

لم يفهم الشرطي الكلمة، فبسط يديه الخشنتين أمام ناظريه.. أقبل أحد رجال الشرطة مصغيًا إلى حوارهما الهادئ..

- يمكنك أن تتهمني أني معهم، فقط لأني جالس بقربهم.. ذاك حقك، لكن تأمل بنيتهم الجسمانية القوية، تسريحات شعورهم الغريبة، و.. و.. أنت تهيننني بهذه الطريقة، والله!.

تأمل الضابط الشاب بطاقته، قرأ بتمعن اسمه، أعاد طرح السؤال، ليتأكد من اسمه العائلي، وأشار إلى زميله بإيماءة من رأسه أن ينسحب في صمت..

- لم أعرفك..

- أنا زوج "ح"، أخت زوجة عمك...

بصق على الأرض لاعنًا كل نساء الأرض، لمح الجارة وهو يصعد درجات السلم الخارجي المؤدي إلى الطابق الأول من الفيلا.. رنا إلى الجارة المولعة باستعراض ثيابها الداخلية في حديقتها الخلفية، وهي تصعد الدرج مادة يدها إلى سروالها الضيق، تشده لتبرز فتنتها الخلفية الطاغية، وتوجع في صمت، غير قادر على أن يبوح لأحد رفاقه بما يكابد في حضرة هذه الأربعينية التي حيرته، التهم مفاتنها بعينيه في صمت نهم، وهتف لنفسه: "ربما كان زوجها العجوز....!!".

حين تفتح شباكها على الساعة التاسعة صباحًا، تبقى متسمرة خلفه ترنو إليه بعيون مراهقة عرفت الحب لأول مرة، فصار يترصد إطلالاتها الصباحية، متشاغلا بأي شيء، بعيدًا عن أعين الرفاق. فالدجاجة "لا تبيض" وسط جماعة، بتعبيرهم. يتشاجر مع العزاب منهم حين يضبط أحدهم يتلصص عليها.. مرددًا في سره : " هذه غنيمتي، ولن أسمح لأحد أن يمسها". يتصرف كالأطفال مخفيًا ما يشبه الغيرة: "أيمكن أن أكون قد أغرمت بها، وأنا أتابع خلال أسابيع تلميحاتها الأنثوية الشهوانية ؟".

- أيعقل أن تنظر إلى واحد مثلك؟ تأمل أسمال الشحاذين التي ترتديها!..

- النساء لا يهمهن المنظر، وإنما الـ...!!.

جن جنونه، فصاح:

- إن نكحتها فانكحني معها أيضا!!.

عض على أصابعه.

رآها تنظف حديقتها الخلفية مع الخادمة، كانت ترفع فستانها إلى ما فوق خصرها، ويلوح سروالها الأسود الضيق خانقًا عجيزة تواقة إلى الانطلاق، وحين تلمح الخادمة قادمة تسدل الستارة على فتنتها الآسرة.

تكرر المشهد أكثر من مرة، وكانت تعرف أنه يراقبها في صمت.

اندهش عندما علم من"بعية"، أنه كان يجلس ليلا أمام بوابة الورش، فجاءته متذرعة بكرة صغيرتها التي رمتها في حديقة الورش، واغتمنت الفرصة لتتجول بين رحاب البيت الموعود، سألته إن كان يبيت وحده.

صرخ في وجهه ضاغطًا على مخارج الحروف:

- غبي، حمار، لا تفهم أي شيء.

- لقد كان معها ابنها.. وسألتني عنك وقالت: إنها لا تحبك، وأنك سيء للغاية.

- أعرف أن لا أحد يطيقني. لكن تلك السيدة تكرهني لشيء واحد فقط، لأنني لم ألمح لها.. هل تحب أن أحكي لك كل شيء ولا تخبر أحدا؟

- صدقت، كل من رآها، قال : إنها تريد من يـ...!!.

- جميل. بدأت تفهم. لكن احذر أن ترتكب أية حماقة. هذه امرأة متزوجة، وسيصدقونها، ولن يتكلم عنها أحد بسوء، وسيحتقرونك قائلين: "عطا الله الزْبل"!!.

في المقهى، مساء.

وهو مع الأصدقاء الصغار، وقف إلى جوارهم "المعاشي" بشاربه، الذي بدأت تغازله بعض الشعيرات البيضاء. أشار إليه أن يرى شيئًا مرميًّا بالقرب منهما، قام مسرعًا ناحيته، فارتمى فوق مقعده، حاول سحب الكرسي من تحت "المعاشي"، لكن دون جدوى. لعلعت ضحكاتهم، وعلق باسمًا:

- هذه المرة خدعتني، مرة أخرى لن أثق فيك، (جذب كرسيًا آخر في الجوار)، أعرف أن كل ما يشغلك هو مكاني. لا أحد يستحق أن تحتل مقعده سواي. (وبسخرية لاذعة) هذه الجلسة تذكرك بجلسة "الكرمة"[5].

وهو يتلفظ بكلمة "الكرمة"، شرد ذهنه للحظات، رأى نفسه صغيرًا، تائهًا في قيظ القيلولات بين أشجار الأوكاليبتوس الفارعة، وهديل اليمام يبث في النفس أسىً غامضًا، كأنه نواح أسطوري، وتحت أشعة شمس لاهبة، يطاردون أعشاش العصافير واليمام، والحجارة الصغيرة والتراب تحرق أقدامهم الحافية. بحنين ذابح، يتأمل كل ما تقع عليه عيناه: الشوك، النباتات الطفيلية، الصبار و"السْطاير"[6]، يحذرهم الأهالي من الخروج ساعة القيلولة، يغافلونهم حتى يخلدوا إلى النوم، فيلتقي كل صبيان الدوار في أماكن معينة، دون سابق موعد، عند البئر أو في البيدر أو في "الجْنانات" بين أشجار التين الهرمة برائحتها المميزة وأشجار الأوكاليبتوس.

احتقن وجه المعاشي :

- شتان بينك وبين جلسة الكرمة، يجب أن تشرب البيرة أولا حتى تصير عندك هذه، مثل خالك (ربت على بطنه، وتابع حديثة بزهو)، منذ عشر سنوات، لم أشرب الخمر، كنا نسهر حتى الساعة الرابعة صباحًا.

بدا شبه غائب عن الوجود، وهو يتحسر على زمن ولّى إلى غير رجعة، وعلى تعابير وجهه قرأ مشاعر تصاحب ذكريات ما. استأنف حديثه بعد لحظات سهو :

- هل نلتقي، غدًا، في سيدي بوزيد ؟ لدي بعض الأشغال هناك يجب أن أتممها.

- تقصد عند الحاج "أبو بار".

وسرعان ما تبادلا نظرة ذات معنى، حين لمحا الجار المتقاعد، قادمًا في اتجاه المقهى، مغلفًّا بهالة من وقار كاذب وترفع عن الآخرين. يزعجه فشله في اختراق عزلته، رغم أنه - أحيانًا - يلقي عليه التحية بصوت لا يسمع، يحرك شفتيه ويرفع يده تحية، و أحيانا لا يلقيها على أحد، يمر من أمامهم متجاهلا الكبار والصغار. أدرك أنه يريد الكرسي من الجار المجاور دكانه للمقهى، سارع إلى إحضاره، حتى يدخن سيجارة، بعيدًا عن عيني زوجته، ثم يغادرهم في صمت التماثيل عائدًا إلى مصبنته، دون تحية.

ابتدره باسمًا:

- والحاج إمتى غادي تدير لينا الزردة، زردة الصباغة ديال الطوموبيل؟...

تضايق نوعًا ما من تطفله رغم طيف ابتسامة باهتة، ارتبك، تلعثم، ابتلع الحروف كالعادة، وامتقع وجهه المتغضن، وبنبرة طفولية مستنجدة، وجه حديثه إلى الجار:

- الحاج.. شوف.. هذا مالو..

هامسًا حكى للمعاشي أنه سأل، قبل أيام، عن سائل كيماوي يُستخدم في الصباغة.

---

[5] شجرة التين.

[6] حواجز حجرية.

أخفى ضحكه، والكلمة ترفض أن تستقيم على لسانه وبنبرته البدوية:
- الحاج، والحاج.. عندك السولو..
- اعتق، وحلات ليه...
قالها في سره، كاتمًا كل ضحك الدنيا.
- عندك السيلو .. لو .. لو لوزيك.

أحس باهتزاز هاتفه المحمول، عرف أنها رسالة قصيرة (sms)، بدا له الرقم غير مألوف، سارع إلى قراءتها: " سأكون في الجديدة هذا المساء، أنا محتاج جدًا إلى من يقاسمني همي، هذا رقمي الجديد. عماد".
انتابه قلق. منذ سنوات لم يقابله، حاول أن يسترجع شريط الذكريات، غارقًا في صمته، سخر "المعاشي" من هدوئه المفاجئ متهكمًا :
- "الله، لا يطيح حبك على حجرة"!.
- لا. إنه مجرد صديق من زملاء الدراسة، يود مقابلتي. منذ ثلاث سنوات لم ألتقه، انقطعت عني أخباره، بعد أن غادر وأمه المدينة، بعد وفاة أبيه.
وقبل أن يسترسل في حديثه، خفق قلبه وهو يسمع ذلك الرنين الذي يعرف من خلاله أنها المتصل. غالب شهقة، انتحب ركنًا قصيًّا، مخفضًا صوته - اتقاء سخريتهم - وهو يتكلم بلهجة مصرية مع "قطته الشامية". قام "المعاشي"، غادر طاولته، لمحه وهو يقرب يده من الهاتف، كأنما يخشى أن يسمع غيرهما كلامه، وبصوت كالهمس هتف: "أهلين حبيبي. وحشتيييني موووت".
علق "المعاشي" هازئًا :
- عنداكي تثيقي بيه. راه غير كذاااااااب.
مقلدا الحاج سيلولوزيك :
- سير. سير. الله يعطيك شي مصيبة!!.

5

- لا أصدق حياتي أنك من تتصلين بي، بصراحة، لم أتعود أن تتلفن إلي أية امرأة.
- لست أية امرأة!.
- بالتأكيد، يا شمس حياتي وأميرة أحلامي.
- لدي خبر سار جدًا..
- ما هو؟..
- منذ زمن، وأنا أفكر في زيارة المغرب. كثيرًا ما كنت أتوقف أثناء تجوالي بين القنوات الفضائية عند القناة المغربية، وأتخيلني إلى جانبك.. نتجول بين أزقة الأسواق الشعبية، وبأحد المطاعم تدعوني إلى شرب "الحْريرة"!!.
- أظن أنك...
- آه، ستبعث جريدتنا بعض مندوبيها إلى المغرب لحضور معرض الكتاب بالدار البيضاء.
- خبر سارّ.
- حياتي، أتذكرين أول لقاء تعارف..؟
تصمت للحظات غارقة في بهجة الذكرى الآسرة.

كتب تعليقًا جافًّا على موضوع لها في منتدى أدبي، أهداها كل جرائمها اللغوية، وللتو، كتب إلى صاحبة المنتدى أن تطلب من هذه السورية التوقف عن نشر كتاباتها في ركن الشعر: "أنت امرأة مثلها، لو كتبتُ لها ذلك ستتهمني باضطهادها...".

وانشغل بتفحص ملف أحد الأعضاء، حدق في صورته الرمزية، قال في سريرته: "ألم تتعب من تغيير صورك كل ساعة، أيها التافه؟". توصل بإشعار بوصول رسالة خاصة من صاحبة المنتدى:"يكفي المنتدى أن معظم الكتاب هجروه، خفف من حدة ردودك". فكر في الرد عليها بأنه لا يجيد النفاق مثلهم، حدس أنها ستفقد صوابها..

على الإطار السفلي الخاص بمشاهدي الموضوع لاح له اسم مديرة المنتدى والـ"دون جوان" الفلسطيني وكاتبة الموضوع.

قرأ رد المديرة.. كلمات ترحيب لطيفة وامتنان على الحضور المشرق دومًا : "تلك صاحبة المنتدى تحرص على تواجد الأعضاء، ويحق لها أن تجاملهم". قرأ تعليقًا وديًّا، فثارت ثائرته، وبأصابع تعدو كخيول السباق كتب: "ابحث عن ضالتك في أحد مواقع المراهقين.. حرر بلدك بدل أن تضيع وقتك في التعليق على تأوهات العذارى. لا تنس أن تتوقف عن تغيير صورتك كل دقيقة، هذا منتدى ثقافي محترم وليس ماخورًا أيها الـ... ابحث عن إحدى قطط الليل، بدل أن تطبل لمن ينصبن الفاعل ويرفعن المفعول به.

مع كامل احتقاري !!".

قفز إلى المشهد الضوئي اسم بحروف حمراء، فأدرك أن زوج السيدة دخل أيضًا أو ربما دخلت باسمه، إذ اختفت الحروف بنية اللون الخاصة بها. بقي اسمه وردي اللون، الدال عليه كمشرف وسط اسمي عضوين متواجدين في نفس الموضوع، أعاد تحديث الصفحة، فوجئ بحذف تعليقه الأخير ولون حروف اسمه صار أسود.. مجرد عضو!.

أحس بنار تلتهم أحشاءه، كتب: "أدع لكم هذا المنتدى المهجور، هنيئًا لك كل نساء العالم يا... سأحاول أن أكون "جنتلمانًا" حين أصبح بمثل خستك. وداعًا".

وفي أقل من لحظات، حجب عنه المنتدى.. لم يعد بإمكانه قراءة أي مادة، كتب له :"تم حظر حسابك. لا وجود لأمثالك بيننا".

- كم كانت مؤلمة تلك التجربة حبيبتي. لكن هذا حال العرب، لا يحبون إلا من ينافقهم !!.

- تتذكر أني انسحبت من المنتدى بعد إيقاف عضويتك. ذلك الخسيس كان لا يتوقف عن كتابة الرسائل الخاصة، عبر المنتدى إلى كل العضوات.. كم كنت أحتقر الأسلوب الذي يتبعه. يكتب للزميلات ردودًا رائعة، ويكاد يبوس أقدامهن على البريد الخاص، لكي يضفنه إلى قائمة المسنجر.لم يكن باستطاعة أية زميلة أن تعرض نفسها لموقف مشبوه، فكن ينسحبن، في صمت، من المنتديات التي يتواجد فيها.

كنتَ تدفعني دفعًا إلى اكتشافك من خلال كتاباتك الحزينة رغم جرأتها.

- أنا سكران وبلا خمر. يكفي أن أسمع صوتك حلو النبرات، لأنسى كل ما تقدم وما تأخر !!..

- أعرف أن كل الرجال لا يفكرون إلا في "السكس"، لهذا لم أكن أقبل من يضيفونني، فبمجرد أن يكتب : "هـاااااي"، يطلب منك أن تشغلي "الكام"... ثمة شيء ما شدني إليك أيها الوغد.
- طيب، آنستي، عمي يبدو قادمًا. أراك لاحقًا.. ربما لن أظهر هذه الليلة على المسنجر... ظروف عائلية. باي.
وأرسل قبلة: " أتمنى ألا تضيع.. بسبب الضغط على الشبكة! ".

وضع الجهاز في جيبه برفق، حيّا عمه وانتحى به جانبًا، ملوحًا لأصدقاء المقهى بيده :" إلى اللقاء".
- أين الباطرون؟
لا أعرف، أظنه في تلك القرية التي تنعق فيها الغربان.
- هل ستأتي معي؟!.
- لا، حتى لو مات كل أفرادها.. حرّمت على نفسي أن أطأ ترابها بعد الذي حدث. لست دمية يحركونها كما شاؤوا.
- عمك الذي مات هذا المساء، أما أنا فلا يعني لي أي شيء.. نسيت أن لي أجدادًا. بالعكس، سأحتفل الليلة بهذه المناسبة السعيدة.. لن أبيت في البيت، لن يسألني أحد، كما لو كنت مراهقة: أين تأخرت؟
- مع "بعية" و"كبالا ".. طيب، هات مفاتيح دراجتك النارية.
- بشرط..
- تعرف أن هذا الـ... صار يتعمد الضغط علي ماديًّا حتى أرضخ، لا يرمي لى بفتات جيبه إلا حينما يشاء، ومن دون شك، سيتباهى بكرمه الليلة. أنا أفهم لعبتهم الحقيرة.. سبق وقلت لك: أني لن أتزوجها، حتى لو عانقت الأرض السماء.
ناوله المفاتيح، والتقط بأنامله ورقية مالية وردية.
عند بوابة الورشة غسقًا..
بعد انصراف العمال، يتجادل "بعية" و"كبالا" بصوت خافت. هذا الأخير جر دراجته الهوائية المتهالكة، ولاح لـ"بعية" سرواله الممزق من تحت وفضلات البهائم تحت حذائه، خاطبه بلهجة جافة: "لا أعرف ماذا ينتظرك في تلك القرية الغبراء؟ لم تتعود أن تتخلف عن سهرات السبت. دعك مع البهائم.. !!" .
- أنا حر، لا أريد أن أسهر معكم .. كرهت القحاب والخمر. أريد أن أتوب.
- لا أصدقك.. هناك شيء ما، ولا بد أن أعرفه.. هيا. انطلق قبل أن يحل الظلام وتتوه عن "خيمتكم".

عكست ملامح "بعية" حزنًا يترنح في أعماقه، وغمغم: "لن يكون للسهرة مذاق، من دون حماقات هذا الدّب!!".
أحكم "بعية" إغلاق باب الورشة، ويمم وجهه شطر مخدع الهاتف العمومي.

يسبح في بحر ذكرياته مع حبيبته الإلكترونية، وهو يقرأ رسائلها القصيرة المسجلة على هاتفه المحمول.. يستحضر لقاءات المسنجر الأولى في المساءات الرتيبة، في وقت صار شبه مقدس أن يلتقيا فيه، حتى أحسا ببعض الألفة والانجذاب الخفي..

لخص لها تعاسته في إحساسه المرير بالوحدة والشجن، عرف منها أنها تزوجت أحد أقاربها، الذي فرض عليها من طرف أسرتها، وأنها خلعته وما زالت عذراء: "لا شعوريًّا، ستكره كل الرجال الذين لا يفكرون إلا في الجنس، وتبحث عمن يبادلها حبًّا عذريًّا". ووجد نفسه مدفوعًا إلى مجاراتها..

وقف أمامه عماد، لم يصدق ما يرى.. نحيلا أكثر مما ينبغي، وقد لطخ الحزن محياه، فبدا أكبر من سنه، كأن كل هموم العالم جثمت فوق صدره.. تبادلا عناقًا حارًّا والسؤال عن الأحوال، ارتشفا فنجاني قهوة وغادرا.. أشار إليه أن يذهبا إلى الورش القريب منهما.

- أعرف أنه لم يسبق لك أن زرت ورش بناء، لكن توجد حجرة جاهزة بكل ما يلزم.. دافئة، منعزلة عن العالم..

دفع البوابة الحديدية المواربة، أعاد إغلاقها بنفس الطريقة التي توهم المار من أمام الورش أن لا أحد في الداخل: "سيتوافد الرفاق تباعًا".

رأى "بعية" ممددًا فوق السرير المهلهل، إلى جانبه امرأة ثلاثينية خمرية الوجه، مترهلة الجسد وهي تعد طعام العشاء، على ضوء شمعة، وغير بعيد عنهما.. ألواح خشبية تستخدم في النجارة المسلحة، شكلت على هيئة مائدة، مغطاة بثوب رخيص، تناثرت فوقها أقداح الشاي، رفع "المعاشي" أحدها، سأل "بعية" عن رقم كأس "كبالا " ضاحكًا، واستطرد:" الله يحفظنا من كأس "قبقب !!".

- اطمئن، قمنا بوضع علامة خفية عليه بالكُلاب من تحت، هشمنا جزءً من قاعه.

- صدق من قال إن البنائين أولاد حرام.

علق "المعاشي" باسمًا.

رمي "كبالا" الدراجة في إهمال على حائط البيت الطيني الذي بدأ ملاطه يتقشر. تحت جنح الظلام، التقى عمه "التباري" واقفًا أمام بيته، يرمي بعض أعواد الذرة اليابسة على الأرض بين بقرتيه العجفاوين.. مداعبًا ظهر إحداهما، فيماالأتان تمد رأسها في حركات متسارعة مطالبة بنصيبها من التبن، مصدرة صوتًا لن يقاومه، ويعرفه بحكم عشرته القديمة لحيواناته.. من خلال الصوت يدرك إن كانت جائعة أو عطشى أو مرهقة. سأل ابن أخيه "كبالا"، الذي ركل بقدمه الكلب، وهو يتمسح فيه حين رفع السلة البالية من المقود.

- أراك لم تبت مع "الدْراري"، الليلة...

فطن "كبالا" إلى ما وراء كلامه، فغير الحديث:

- لم أجد أمي في الدار. أليست عندكم ؟

قالها وهو ينقل نظراته بين أركان بيت عمه باحثًا عن شيء ما، لا يعرفه سواه.

- لا، لقد ذهبت مع زهرة للعزاء.

امتقع وجهه، كأن سطلا من الماء البارد رش فوقه على حين غرة. لاذ بالصمت، وسأله العم :

- سأغير ثيابي، وأذهب. ألن ترافقني؟.

- لا.لا.لا. هم لم يعزوني في أبي...

لم يكن يعني "كبالا" موت الجد في شيء.. لا تهمه الوشائج الرابطة بين أفراد الدوارين، راح يبحث عما يأكل، ليبدد توتره الطاغي مثقلا بما يصطخب بين جوانحه، غير قادر على البوح -لأحد- بما يجول في خاطره، ثم ارتمى على سريره في الظلمة متحسرًا على ضياع السهرتين. وضع شريطا شعبيًّا للستاتي في المسجلة، أشعل سيجارة شقراء رخيصة، راح يدخنها في تلذذ.

في عمق الليل البهيم، تفرق الرفاق. كعادته، تسلل إلى إسطبل عمه الملاصق لبيتهم من الخلف.. سمع خشخشة أوراق، وخطوات تقترب.. انغماسه في لذة اللحظة جعله ينشغل عن معرفة من يخرج من بيته، بعد منتصف الليل. ضبطته زوجة عمه محتضنًا الأتان من الخلف وجسده يهتز. كانت لا تزال تشد سروالها وتبانها، من تحت ثوبها المرفوع ما فوق الركبتين، تراجع إلى الخلف، مبتعدًا عن الأتان... شهقت، غير قادرة على رفع عينيها:

- عرفت الآن لم لا تحبل كل أتان "نكسبها"؟
- أرجوك، لا تخبري عمي.
-بشرط...

لم يكن باستطاعتها أن تقول له إن عمه يأبى أن يلتصق بها من الخلف، ليطفئ نيران شهوة شيطانية اندلعت في بيدر جسدها، وهي تتمرغ فوق شوك الفراش. تردد في سريرتها: "ليس ذنبي أن أحدهم التصق بي من الخلف، في زحام الحافلة المتوجهة إلى السوق الأسبوعي". أدرك النداء الخفي للجسد الأربعيني المحروم، وهي تستند بيديها على الحائط في تلك الظلمة، دافعة بعجيزتها المترجرجة نحوه... طوق خصرها بذراعيه بقوة، وأنفاسه تحرق وجهها. تدفق رضابه فوق رقبتها، تقززت، فنهرته ألا يقبلها.

شد نفسًا عميقًا من سيجارته، ارتسمت على شفتيه ابتسامة حين مر طيفها بذاكرته متأوهة، تترجاه أن يترفق بها: "يومين وأنا أمشي كالإوزة، ونساء القرية يمازحنني :لم تمشين كصبي بعد ختانه؟". أحس بكراهية شديدة تجاه خال أمه وهو يسرق منه بهجة السبت المشتهاة. قال لنفسه وهو يزفر " :ألم يختر أن يموت إلا يوم السبت؟ اللعنة! حتى عمي "التباري" صار يربط أتانه العجوز في الخارج...".

غادرا الشرفة العلوية، حيث جلسا بعيدًا عن "بعية" و"المعاشي" ومزاحهم البذيء مع العاهرات الثلاث.. حين أدرك بفراسته رغبة عماد في البوح له بأشياء تضايقه.. بعيدًا عن غرباء لا يعرفهم، تواعدا على أن يلتقيا صباحًا في الورش، ثم يزوران زميلهما السابق في الدراسة عبد الرحيم في حجرته.. طفا الحزن على ملامحه، متأثرًا بما روى له عماد، وغمغم : "تبا لأم لا تفكر إلا بأسفلها!". خيل إليه أنه سمع هدير دراجة نارية، لاح له "كبالا" يحرث بقدميه الشارع محاولا إيقاف دراجة نارية بلا مكابح، وهو يصيح في وجوه أطفال يلعبون الكرة في الشارع:

- "ما كاينش لفران، حايد من الطريق!!".

شد الدراجة النارية نحوه محاولا إيقافها، وصاح :

- وصل كبالا !!.

للتو، انطلقت أصوات صاخبة من الداخل، تهتف بصوت واحد، مثل مشجعي كرة القدم :

- ووووي .. ووووي .. كبالا ووووي... ووووي.

6

في هدأة الليل البهيم، تلوح القرى المجاورة والبعيدة غارقة في صمت أواخر ليالي الشتاء الكئيبة. يتناهى نباح الكلاب متقطعًا وبعيدًا. النجوم تسبح في الفضاء السحيق تحرس القمر الشاحب، وقد توارى خلف السحب.

قبالة البيوت، نصبت خيمة كبيرة في الباحة الواسعة، إضاءتها الساطعة تسلب ليل القرية صمته الجليل وظلامه الدامس.. يلوح الحزن على صفحات وجوه الفلاحين، المتناثرين داخل الخيمة، مشكلين جماعات صغرى، متفرقة، متحلقين حول صواني الشاي وأطباق الكسكس، تحدثوا بصيغة الماضي عن الجد الفقيد- بكلمات مختصرة، كأنما ينتزعونها انتزاعًا من قلوبهم- عن تعلقه بقريته التي لم يفارقها إلا لمامًا.. مكارم أخلاقه، صلواته وحجه، قبره الذي لم يجدوا عناء في حفره في هذه الأمسية، وهم يدفنونه على عجل، قبيل حلول الظلام.. ثم انساب الحديث إلى المطر الشحيح،

توقع ضعف المحاصيل الزراعية، كراء المراعي، غلاء الأعلاف، وأمنيتهم القديمة في حفر بئر أخرى يزودونها بمحرك.
بخطوات حثيثة يتنقل الأخوال والأعمام بين الخيمة وبيت العزاء، حاملين أطباقًا أو صواني، وكلاب الدوار تروح وتجيء بينهم وديعة، صامتة كعادتها في ليالي الأعراس والمآتم، تبحث متكاسلة عن بقايا الطعام. تعلو أصوات فقهاء الدواوير بتلاوة القرآن، يسود الصمت، وفي الداخل يتردد صدى أنين خافت لنساء حزانى، ممتزجًا بدموع أعينهن الملتهبة، يمزقه صوت إحدى القريبات، وهي تنهر النسوة المتكاسلات عن خدمة المعزيات برباطة جأش ورقة مغلفة بقسوة لينة.

تأملته المرأة وهو غارق في صمته، حاولت أن تلاطفه، ودون جدوى. سألته عن سرّ حزنه. لم ينبس بكلمة، أجابها أحد الندماء بأن جده مات هذا اليوم.
لم يهتم لسماع بقية كلامهم.
تزاحمت الصور في ذاكرته، أحاسيس شتى اصطخبت في أعماقه، أحس بهم ثقيل ينزاح عن كاهله، تلك خطوة كان يجب أن يتخذها.. يتألم حين يستحضر أن من كان وراء قراره اللا متوقع حبيبته التي عبرت له عن رغبتها في العيش معه، بشرط أن يبارك والديه زواجهما. تساءل: "كيف يتخلى عن امرأة وهي تحبه كل هذا الحب ويتزوج فتاة بدوية أمية، لا شيء يوحد بينهما غير دم القرابة ولا يستلطفان بعضهما؟".

فكر أيامًا وليالي في التخلص من عبء وافق عليه بصمت سلبي، والقلب "العاشق الملال" كان في سبات وجداني. يعتصر قلبه الألم، لا ينسى دموع أمه وهي تحوّل ذلك اليوم إلى مأتم، و الجد اتهم أبويه بأنهما مرغا سمعته في الوحل بعد أن كان رأسه مرفوعًا وسط القبائل. ويتهم الأقارب العم بأنه من حرضه - بحكم عملهما المشترك في ورش واحد- حتى يرد لهم صفعة تزويجهم الخالة لصديقه، بعد أن كانت خطيبته.
العم أيد قراره قائلا : "يوم الخطبة لم تكن حاضرًا معهم، لم تتفق مع أحد. فعلوا كل شيء من دون حضورك!!".
البيت صار أشبه ببيت عزاء، الأم تهزأ من بكائه، بعد أن تخلت عنه الحبيبة خوفًا من رد فعل أسرته: "كل هذا من أجل امرأة، لا شك أنها "سحرت لك". ولن تجد مغفلا غيرك بعد أن"شبعت" من الخروج مع زملائها في العمل. لقد خسرت البنتين معا!!". الخال الأكبر يشيح عنه بوجهه، كلما التقاه في الطريق، وبقية الأقارب بأسى يرددون: "لن تجد لها مثيلا...!!".
والمرحوم بهذه البساطة نسي كل شيء، كل شيء.. كما لو كنت أحد ثيرانه، بمجرد أن يرى أية بقرة من البقرات يعتليها، حتى لو كانت أمه أو أخته. ينسى كل شيء.. فرحه النقي، في العطل المدرسية، بأكبر أحفاده كل هذه السنوات في لحظة...
تهتف الأم:
- من الآن فصاعدًا، لا تضع قدمك في القرية حتى لو مات أبواي!.
رد بحزم، ومن دون تفكير:

- موافق.

انسابت دموعه حارة.
واساه الرفاق، كفكفها.. أفرغ "كبالا" الكأس في جوفه دفعة واحدة، ردد بصوت طفولي حاد، كما تعود حين يرى نسوة مارات أمام الورش : "واباااغي اللْحمْ مْ مْ مْ ، واباغي لْحَاااايْممة رْطَيْبِيبَــة"، يفهمنغزله الوقح البذيء، يتضاحكنفي غنج، مزهوات بأجسادهن. مدّ "المعاشي" لـ"كبالا " ما تبقى من الوعاء، طالبًا منه أن يتنازل لهم عن العشاء، لأنه شره، احتج بصوت حاد :
- أنا وَلّيتْ كلب ناكل في الكَميلة.

سأله "المعاشي" عن حكاية جده حين رأى أول مرة التلفزيون. كان "كبالا" طفلا في ربيعه العاشر. ظهر مقدم نشرة الأخبار مستهلا كلامه بتحية "السلام عليكم"، فالتفت الجد إلى "كبالا" مشدوهًا قائلا :
- هو عرفني وأنا معرفتوش!!.
ضج المكان بالضحك.
عند سماعهم كلمة التلفزيون تذكروا المسجلة التي حطمها "كبالا" في حالة سكر، وهو يتدحرج في ظلمة الدرج، حزنوا لفقدانها- لحظتها- ولم يهتموا لأنينه طوال تلك الليلة، ومن دونها صارت سهراتهم أشبه بمأتم، فصبوا عليه فائض لعناتهم.. كلما تذكروها.

مع تباشير الصباح، تسلل "المعاشي" من الفراش، هز "كبالا " من كتفه:
- ماغاديش تمشي تحرث، آمسخوط الوالدين؟
بين النوم واليقظة، رد بصوت متهدج بأنه لا يمكن أن يعمل في الحقل والورش، يكفيه أنه يدبر لهم المال. تلك شؤون أخيه "بو الرْكابي".

تستيقظ النساء الأربعة عند سماع حديثهما الخافت، يرتدين جلابيبهن مغادرات الحجرة في صمت وهن يتثاءبن.. يسبقهن "المعاشي" واقفا أمام البوابة الحديدية، يلتفت يمنة ويسرة، ثم يشير إليهن بيده أن يخرجن بسرعة.

في صباحات الآحاد يغرق الحي في صمت آسر مغرٍ بالخمول، عكس بقية أيام الأسبوع، حيث تدب فيه حيوية وصخب مبكرين، منبعثين من ورش البناء الوحيد في الحي. تغازل شمس الضحى وجه "بعية " النائم قبالة النافذة، وهي تخترق الستارة البالية.. يلقي نظرة على عقارب الساعة، يسارع إلى إيقاظ رفيقيه.. "كبالا " يتلكأ وهو يتمطى في فراشه بهيئته الضخمة، فيبدو مثل بغل يتمرغ في التراب.

تنعم القرية بهدوء غير معتاد، داخل الخيمة تناثر بعض الأقارب فوق الحصير، يقدم "المعاشي" تعازيه مدعيًا أنه كان في الدار البيضاء حين بلغه الخبر، ولم يصل غير هذا الصباح.
يلوح الأب مطرق الرأس مع أحد الأخوال، يتحدثان عن أوراش البناء، عن الابن العاق، الذي لا يريد أن يصير رجلا ؛ لا زواج ولا تحمل مسؤولية الإشراف على

الورش، ويقضي اليوم في المزاح مع العمال، بدل أن يكون صارمًا معهم. لم يفكر حتى في أن يظهر أمام المعزين.. يقترح عليه الخال أن يبعده عن أولاد دوار الدحوش، وأن يتنازل له عن ورش الحاج، ويكتفي بأن يزور الورش، من حين لآخر، زيارات عابرة : "عندي "مْعلم" يعول عليه في كل شيء".
أطرق الأب برأسه صامتًا موافقًا، وجاءهما صوت الخال الأكبر، يلوح بيده في الهواء، هاشًّا على الغنم، وهو يشتمها كعادة الفلاحين.

قاموا بجمع أغطيتهم، تشميسها فوق الجدران، وتصبين بعض الثياب وأزياء العمل، قرابة الساعة الثانية عشرة تناولوا وجبة فطورهم وغادروا - ثلاثتهم - الورش، مدججين بضحكهم الصاخب، لاح لهم عماد في شجار مع الجارة.. تشده من ثيابه تجره داخل بيتها متوسلة:
- حرام عليك! حتى لو كنت كلبة لا تعاملني هكذا.. ثلاث سنوات لم أرك، وتمر من أمام البيت وكأني لست أمك؟
عقدت الدهشة ألسنتهم. همس لنفسه :"أيمكن أن تكون هذه المرأة التي دوختني بشهوانيتها أُمّ صديقي؟ أيمكن أن أصارحه أني أشتهيها و تشتهيني.. ولكن؟ يا الله..!!".

7

أشار إلى رفيقيه أن ينتظراه بعيدًا، لمح في عيونهما نظرات ذات معنى، فرّق التجمهر الصغير لبعض متطفلي الحي، وطلب من عماد البقاء في مكانه أمام البيت، شدّها من يدها إلى الداخل خلف البوابة، وفي داخله ذئب مسعور على أهبة الانقضاض مكشرًا عن أنيابه، همس الذئب: "حان الوقت لرد الاعتبار، والانتقام من كل بنات حواء، مضى زمن البراءة.. ابتلعْ مرارة خياناتهن مع رجال أكثر نذالة، تمامًا مثلما تقتضي الضرورة الفنية، في هذه الحالات!!.
حاولْ أن تبدو بمظهر الفتى الشهم، لا بأس..!!".

في رحم خياله تشكلت فكرة كتابة قصة قصيرة عن هذه الأم، تلح الأفكار على أن يحررها من ظلمات سجنها. "لا بأس إن خدعت قراءك المفترضين، وبدوت أمامهم فارسًا نبيلا في زمن بائس، لست نبيًّا، ولن تكون النذل الوحيد، وليست نهاية العالم إن تخليت عن مبادئك مرة واحدة مقابل نزوة عابرة،(هكذا برر لنفسه كل شيء). سأحاول الليلة أن أرتب أفكاري، وأختار لها كعنوان، حتى ولو بدا مستهلكًا، لكنه قريب من أجواء هذا النص الوليد :"عفوا أيتها الأم".
كل هذه الخواطر جالت في رأسه وهو يتجاوز مسافة خطوتين فاصلتين بين ابن وأمه، ومثلما يحدث في بعض الأوقات الحرجة، دس يده في جيبه منتشلا تلك الورقة السحرية، التي تضم اسمه ورقم هاتفه ومسنجره، ربت على يدها مطمئنًا، وهو يدسها في راحة كفها في ثقة، متعمدًا أن يتحسس نعومتها:
- لا داعي للقلق، أحترم مشاعرك، رغم أن ما حدث لم يكن بإرادتكما.. ثقي أنني لن أرتاح حتى يعود إليك.
اختفت تلك القطة المتنمرة التي تعودت على أن تخاطب الآخرين باستعلاء، أحس بها تتضاءل صامتة - حين عرف نقطة ضعفها- غير قادرة على أن تنبس بكلمة.
- لا تخبر أحدًا!.
قالتها وهي ترفع عينيها ناحية الورش.
أدرك بأنها لا تود أن يعرف البناؤون حكايتها.
- عماد مثل أخي..!!.
وفي عينيه لاحت لها نظرات شبقة، سادية،لم يحاول أن يغلفها بأية مشاعر رقيقة.
بثقة واعتزاز ضم أصابعها البضة وأحكم قبضته فوق راحتها، حيث تستريح تلك الورقة الصغيرة الملفوفة بعناية فائقة، كأنما يقول لها : "كل ما تريدينه تجدينه في الورقة، لا تتأخري، يا عنقود الأنوثة الباذخ"!!.

عند محطة الحافلات، التقوا بعبد الرحيم، سأله إن كان لا يزال يتذكر هذا الشاب، مشيرًا بيده إلى عماد، تأملهما بحميمية وهما يغرقان في عناق حميم، أثاره ذلك النداء الخفي للقلوب المحبة التي لا يخطئ نبضها، ولو تبدلت الملامح قليلا. لمح إلى عبد الرحيم أنهم سيتركونهما. وجه كلامه إلى عماد: "هذا من كنت تسأل عنه"، لاحت لهما الحافلة رقم 2 :

- انصرفا قبل أن تُحتل كل مقاعدها، أمّا أنا فسأذهب مع هذين المعتوهين إلى سوق الحمراء.

في انتظار قدوم الحافلة رقم 3 انشغل بتأمل ملامح الوجوه و البنايات من حوله، انتبه إلى صمت "كبالا" المفاجئ، حين مرت من أمامهم نادية، خادمة الجيران التي لا يعرفان سوى اسمها من خلال نداءات ابني مشغلتها الصغيرين، كانت تحمل شيئًا في يدها. تعودوا أن يروها ترتدي الجلباب السماوي الوحيد، شابة في ربيعها الخامس والعشرين.. بقوام كغصن البان، ووجه بدري صبوح يسلب العقول، وعينين لا تخطئ سهام نظراتها القلوب.

تأمل صمت "كبالا "، كان يعرف ما يجيش في دواخله من مشاعر مضطربة.. لعله نوع من الحب الذي لا يمكن لـ"كبالا" أن يعبر عنه إلا بطريقته الخاصة، يصمت غير قادر على الكلام، يعبدها في صمت، حتمًا تحس بما تخالجه، وهو يرتكب حماقاته اليومية كلما أبصرها، ولعلها تضحك مشفقة عليه، حين تخلو إلى نفسها، قال لنفسه. التفت إليها "كبالا" يشيعها بنظراته وهو هائم، فاصطدم بالعمود الكهربائي، وضحك "بعية " حتى دمعت عيناه قائلا: "واكِي دِرْتِـي مع الحُبّ والشْـتا كَاتـْصُبْ!!".

عربد "كبالا" مثل طفل مدلل حاد المزاج، و ابتسامات ساخرة لمح أطيافها على شفاه النساء الواقفات إلى جوارهم في انتظار الحافلات. خمن أن منظره البدوي، ملامحه الجامدة وجسده الضخم لا توحي لمن يراه بأنه قد يكون رقيق القلب وعاشقًا.

تعمد "بعية" أن يسمع النساء المجاورات سخريته منه. استشاط غضبًا وطارده وهو يرشقه بالحجارة خالقًا جوًّا مرحًا بدد بعض توتر الحافلات التي تأخرت.

كان يحس بما يكابد "كبالا"... إنه الحب ابن الكلب، هتف لنفسه. كانوا يشفقون عليه من "بهدلة" الحب، ورغمًا عنهم يضحكون ملء القلب، ارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو يتذكر يوم ضحك "بعية" حتى "بال" في سرواله.

مرّ "كبالا " بالناقلة حاملا كيسي إسمنت من أمام الورش، وتجاوزه هائمًا على وجهه، فبدل أن يدخل عبر المرآب سرح بعيدًا، عند رؤية نادية، التي لم تبتسم في وجهه، ولو مرة واحدة، بقي يدفع الناقلة أمامه غير عابئ بما حوله، وهو يلتفت خلفه كعاشق متيم.. غير منتبه أنه تجاوز الورشة، وذاب في سحر الالتفاتات والشارع الطويل يرجع صدى صوت عجلة الناقلة.

لم ينتشله من شروده سوى صياح عمه "التباري" وهو يصب عليه جام غضبه، وبأعلى صوته: "واش غادي نباتو الليلة هنا. هارا السيما، أمسخوط الوالدين. سير اتزوج، الله يعطيك شي مصيبة.. شوهتينا، بحال اللي ما عمرك ما شفتي العيالات"، ترتسم على شفتيه ابتسامة طفولية، ويستدير غير مأسوف على المسافة الطويلة التي قطعها، رغم تذمره المعهود، في مرات سابقة، بأن يحضر رب العمل الإسمنت بدل أن ينقلوها من "الديبّو"القريب على أكتافهم، و عجلة الناقلة تردد ذلك الصوت المزعج، الأشبه بنعيق البوم ممزقًا صمت الأماسي الشتوية.

يسخرون منه، يلوذ بالصمت، ويصب حنقه في كومة الخرسانة المسلحة، ينتقم من إهانات عمه في صمت، يدفع إليه سطول الخرسانة بلا توقف، دون أن يرحم كهولته التي ما عادت تستطيع مجاراة عنفوانه، ولا يعطيه فرصة لالتقاط أنفاسه: "تريد أن تعمل. خذ، حتى تنام مع الدجاج، وتوقف عن الشكوى مثل العجائز".

في ظلمة الإسطبل وهما يختلسان متعتهما المحرمة، بحبور تهتف زوجة عمه:

- إنه ينام بمجرد أن يضع رأسه على المخدة.

- جيد. أعرف، لأنني لا أدعه يحك رأسه في العمل.

يتعاطف مع "كبالا" وهو يحكي له عن حلم الظهيرة، حلم بكر طاهر.. يراها في حلمه تغدق عليه بابتسامة لؤلؤية تنعش بمطرها صحراء أيامه، وشعرها يسترخي على منكبيها موجة رطبة، وفي عينيها تغرد البلابل. كان يعرف معنى أن يختصر عاشق كل بهجته في الظفر بمجرد ابتسامة طفولية عذبة، تنسيه كل ما حوله.

- هذا أجمل ما في الحب، يجعلك ترى الكون جميلا.

- في الليل، بمجرد أن أتذكرها يفارق جفني النوم.

يا ربي!.

وتنهد ملتاعًا.

لقطة بانورامية من فوق، يشاهد عبد الرحيم وهو يخلع قميصه وإلى جانبه عماد، وقد بدا يستسلم لإغفاءة لذيذة، بعد أن داعبت رائحة "الكيف" خلايا رأسه وبددت توتره الداخلي، يسدل ستارة النافذة، بعد أن أحكم إغلاق باب حجرته، يطفئ المصباح، ويتصاعد أنين خافت...

ويغرق المكان في إظلام تام.

بين الممرات الضيقة الفاصلة بين صفوف باعة يعرضون بضاعاتهم الرخيصة على الأرض، يلمحون رجلا بعكازين وساق مبتورة، يمد يده نحو المارة. المشهد عادي جدًا، رتيب ولا يحرك أي شيء في دواخلهم، "لا يعور ولا يعرج إلا البلاء المسلط"، علق "كبالا".. طلب منهما درهمًا وهو يتحسس جيوبه، استغربا شهامته بعد انصراف الكهل، وراقباه في صمت، وهو يرمي الدرهم أمام متسولة ترضع صغيرها. رغم قذارة ملابسها، كان ثديها يطفح أنوثة وحلمته الرمادية المتصلبة تلمع.

- ابن الكلبة... ماعندوش فين يرقد.

نظر إلى ساعته وهو يسمع آذان العصر، فأيقن أن الموعد أزف، وحان الوقت ليودعهما.

أحس براحة داخلية عميقة وهو يستقل الحافلة رقم 8، خالجه ابتهاج عميق وهو يلمح مقعدًا شاغرًا إلى جانب نادية، وسألها في لطف بالغ إن كان بإمكانه الجلوس...

8

كانت منشغلة بأكل شيء ما لم يعره انتباهًا، كسرة خبز أو قطعة حلوى، وبعض التعب يستلقي فوق تعابير وجهها الطفولي الصبوح، وعلى فخذيها كيس بلاستيكي صغير، تحاشى التطفل على خصوصياتها، لاذ بالصمت بعد أن عبّرت له بابتسامة صافية عن موافقتها.

لاذ بالصمت، ألقى نظرة من النافذة المجاورة لها، تخيل "كبالا" يعبر الشارع دافعًا النقالة، غير مكترث لضجيج منبهات السيارات، وقد توقف لحظة تدوم دهرًا، يتأملها.. يرنو إليهما سوية، ثم يهيم على وجهه بـ"برويطته" حزينًا كسيرًا، تخيل المشهد بكل تفاصيله، فندت عنه ضحكة كبح جماحها، واضعًا يده على فمه.

مزقت الستارة التي بينهما مستفسرة عن سبب ضحكه.

بنبرة اعتذار :

- لا ، لا أسخر منك.. بالعكس، اصفحي عني إن خانتني الكلمات. لا أصدق أنه يمكن أن تجمعنا الصدف السعيدة، وأرى ملامحك عن قرب حتى لو لم أتكلم.

أطرقت برأسها.

- صدقيني كل ما في الأمر،تذكرت صديقنا "أبوبرويطة".. حرام عليك.كلما رآك "تْلف ليه"العقل، يصير كالأطفال، حين يضيعون النقود في الطريق.

ابتسمت رغمًا عنها.

- يبدو أنك "عزيزة عليه"، وإن حدث له أي مكروه. فأنت الملومة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- تائه مثل "كبالا" لكن بدون "برويطة"، على الأقل، لا لوم عليه فهو مغرم. أما أنا فما عاد للحب مكان في قلبي. صدقيني ليس لد ي أية و جهة معينة. تائه مثل أي"بوهالي". وأنت يا زينة البنات؟
- في طريقي إلى بيتنا.
- أود أن أسألك سؤالا، لكنني محرج .
- ممكن..
- هل أنت متزوجة؟
- متزوجة وغير متزوجة..
- كيف؟ ولم أنت حزينة دائمًا، امرأة في جمالك لم تخلق للحزن؟
- توفي زوجي قبل أشهر في حادثة سير. هذه صورة ابني، عمره عشر سنوات، وهذه ابنتي ثمان سنوات.

أحس بقلبه يتمزق، ودّ لو يعتذر عن كل ما دار في عقله الباطن، فكر في أن يسألها:"لم قبلت أن تتزوجي وأنت صغيرة السن ؟"، فبدا له السؤال غبيًّا.

رن هاتف شيطاني في داخله:

- اطلب منها رقم تلفونها، ألن تغتنم هذه الفرصة الذهبية، هذه أرملة وما زالت في عمر الورد يا غبي؟!.
- لا يمكن! حتى لو كانت آخر امرأة في العالم. تخيل نفسك مكان ابنها، أيها الحيوان!!..

أيقظته من شروده وهي تسترسل في سرد حكايتها.

- لي أخ واحد، وأبواي دائمًا ينصحاني أن أنسى، ولا أفكر كثيرًا في ما حدث.. من أجل ابنيّ.

لاذ بالصمت، ولم ينتبه إلا وهي تودعه حين توقفت الحافلة قبالة إحدى القرى، استرخى فوق مقعده بعد أن قل عدد ركاب الحافلة، وخفت ضجيجهم، غرق في شروده كسير القلب، والدمع يكاد يطفر من عينيه.

يشيع عبد الرحيم عماد الغارق في خطواته المرتبكة ودموعه، يصب جام غضبه على الزمن المقيت، وأمه.." العاهرة التي أنجبته"، كما تعود أن يصفها، تذكر أول مرة أحس بالرعشة الجهنمية تسري في بدنه، وأمه تنزل سرواله وتتفحصه، خشية أن يغتصبه المراهقون، كان طفلا فتان المحيا، تغار من وسامته الصبايا.. يستعيد متعته كلما دلف إلى البيت، وهي تحذره من الغرباء. صار يجد متعة ناقصة لا تكتمل إلا... حين يجلسه المدرس فوق حجره بعد أن يأمر التلاميذ بالانصراف.

ومثل أي مراهق، انجذب إلى الجنس الآخر، واسودت الدنيا في عينيه حين بدأ يدرك معنى كلمات: لقيط، مجهول الأب، ابن حرام.. ابن امرأة شهوانية شبقة، تتسلل من حضن أزواجها ليلا، وتقابل أحد عشاقها.. يكاد يسمع الجارات الثرثارات يرددن هذا الكلام في طريقه إلى المدرسة أو البيت، فتخترق خناجر صدئة مسمومة فؤاده.

تحمل كل شيء في صمت مرير. كان يعرف أن الرجل الذي كفله لم يكن والده، حمل اسم رجل كانت تردد أنه مات وهو ما زال جنينًا.

لم يكن يعنيه في شيء كل ما حدث و يحدث.

أدرك - منذ نعومة فخذيه- أن الدنيا تعانده، تسلبه كل بهجة، في حين لا تبخل على الآخرين. حين اختلت به عشيقته، وتكرر الأمر، صفعته بكلامها: "أحتاج إلى رجل حقيقي، وليس امرأة مثلي!!".

انتقم من رجولته الناقصة بالانبطاح...لم يتحمل آلامه النفسية وإحساسه بالمهانة حين يفرغون من لذاتهم، وينهالون عليه شتمًا، لكمًا وركلا.. توجع في صمت، وجاهر بكفره برب السماوات والأرض، الذي خلق الذكر والأنثى والخنثى، لأنه- اعتبره- المسؤول عن كل شيء!!...

أخرج من جيب داخلي بمعطفه دفترًا صغيرًا، تعود أن يسجل به أفكاره العابرة، وشرع في الكتابة.

"الزمان ليلة شتوية المكان بيت منزوٍ غرفة باردة فراش معطل تتمرغ المرأة في الفراش والزوج يعزف سمفونية لليل بشخيره العميق يطن في رأسها كلام الجارة العجوز التي التقتها في حمام البلدة الصغيرة الهادئة نظرات الشمطاء إلى جسدها العاري لم تكن بريئة وهي تعرض عليها أن تساعدها بأن تمرر الصابون على ظهرها فشرعت تتغزل بمفاتنها و سألتها إن كانت أما

مرت سنتان على زواجهما ودون جدوى سألت صديقتها كيف تنجب فجاءها ردها بغنج أنثوي وضحك فاجر ما عليك سوى أن ترفعي رجليك طوال الليل ولا تذهبي إلى الحمام دلتها العجوز على فقيه لا يشق له غبار الزوج لم يهتم بحكاية الإنجاب بسبب تدينه وإيمانه كانت تحس بالفراغ يغلف حياتها حين ترمق الجارات وهن يضربن أبناءهن في الشارع تردد في نفسهاإنهن لا يقدرن نعم الله

لم تصارح زوجها برغبتها في زيارة الفقيه حتى لا يتهمها بالتخلف والإيمان بالخرافات حينما ولجا ذلك الزقاق الرهيب أثارها سكون المكان أثار انتباهها ستارة بيضاء بعرض المحل تمتد حتى السقف لم تحس بما حدث لم تتذكر أي شيء غير رائحة بخور خانق وجه عجوز كريه بلحية بيضاء طويل القامة ضخم البنيان وجدت نفسها تقارن بينه وبين زوجها الضئيل الذي ينام بعد رعشتها الأولى ويتركها على جمر

كل ما تتذكره أنها غابت عن الوعي وأحست بالأرض تدور من حولها وهي تكتشف أنها عارية صعقت اغتصبت رغما عنها وهي الأبية التي اشتهاها كل عزاب البلدة دون أن يظفروا بابتسامة رضى منها".

انتبه إلى صوت فتاة الحافلة تنبهه إلى وصولهم إلى نهاية خط الرحلة، مازحته :

- ماذا تكتب ؟ هل تشتغل مع أصحاب الإحصاء ؟

- نعم. لقد سئل أحدهم عن ماشيته.. فأجاب: أنا حمار وخويا حمار..!!.

وانفجر ت ضحكًا. النكتة ذا ت مغز ى سياسي، كلماتها السطحية تعني بأن له حمارًاولأخيهحمارًا، ما وراء السطور: أنا مغفل وكذلك أخي..!!.

انتحى جانبًا، جالسًا على حجر، والناس يتأملونه وهو منكب على أوراقه مستغربين أن يكون شاب في مثل سنه ما زال تلميذًا، وربما اعتقدوا أنه يكتب تقارير للسلطة. فكر - لوهلة- أن القراء المفترضين سيستغربون كيف عرف بتلك التفاصيل، لا

سيما وأن عماد لا يعرف أي شيء عن ماضي أمه، وسيصير من الصعب التمييز بين الواقعي والخيالي في النص. لمعت في ذهنه حكاية "المعاشي" عن أحداث مشابهة لامرأة شبقة في الدوار وحكاية "المعاشي" مع أحد الفقهاء.

"وفي اليوم التالي طلب منها الفقيه المبيت في بيته و اقترحت عليها العجوز أن تخبر زوجها أن أختها في حالة مخاض ويجب أن تكون بجانبها وسيرفض الزوج فكرة الحضور معها ولم تحس إلا و هي تمطرها بقبلات ممتنة كانت العجوز تبتسم في خبث كأنما تعبر بامتنانها اللامحدود للشيطان بيد أن أغرب ما أثارها هو طلب الفقيه وطلبت من العجوز أن تشرح لها فأخبرتها أنه يريد رجلا ينام معك ويسكب ماءه في كأس

كان يبدو لها غريبا ما تسمعه أحست بوخز في قلبها لكن حاجتها لإسعاد زوجها تجعلها تفعل المستحيل

ووعدتها العجوز بإقناع أخيها وطمأنتها حتما سيقبل هذا الدور

أغلق الفقيه كتابه وانصرف

في الظلمة كان قلبها و عينا ها يبكيان غطت وجهها بوسادة و هو يضاجعها وفشلت كل محاولاته في أن يرفع الوسادة لكي يقبلها وأحست به يقترب من غيبوبة اللذة لكنه لم

حاولت أن تتملص من تحته لكنه أحكم قبضته عليها

أنت حمقاء بالتأكيد

خدعت من طرف العجوز وأخيها

أحست أنها لا شيء ليست أكثر من عاهرة رخيصة أو هكذا صارت".

أحس بوجع يخترق خلايا رأسه، توقف عن الكتابة. فكر في حبكة مقنعة تجعل القارئ يقتنع بسقوطها. تذكر حكاية "المعاشي" مع الفقيه، وليجعله في هذه القصة أخا العجوز، وليسجلها في صفحة أخرى، ربما يحتاجها، لاحقًا، عند تنقيح مسودة النص.

"فرح باقتراح الفقيه بأن ينام مع إحدى زبوناته لم ينتبه إلى أنها قامت بعصر شيئه بمنديلها محتفظة ببعض سائله اللزج

في حركاته وسكناته صار يهذي أمام الجميع برغبته في الزواج بأي شكل من الأشكال وهو الذي لم يقع في مصيدة كل بنات القرية رغم كل الإغراءات

استغرب صديقه انقلابه المفاجئ سأله عما جرى له حكى له بالتفصيل ما حدث مع الفقيه الصحراوي ودعه ووعده بحل مشكلته

لم يسأله عن الوسيلة خمن أنه سيستكتب حجابا عند فقيه آخر رأى نفسه في منامه فوق سحابة وكل شيء من حوله كالذهب يلمع وامرأة تصرخ ملوحة بعصاها تحاول أن تصيبه

أحس بالنفور منها

كاد يجن في منامه

في الصباح قابل صديقه سأله إن كان مازال يفكر في الزواج فرد عليه بسخريته المعهودة هل أنت أحمق أأتزوج تلك".

توقف عن الكتابة ملتقطًا أنفاسه، ثم استطرد:

" طلبت من زوجها الرحيل بدعوى الخوف على وليدها من أذى عين الحسود خوفها الحقيقي كان من العجوز التي صارت تبتزها بأن تلبي رغبات أخيها ورغبات كل طالبي المتعة

الذين يطرقون باب بيتها أغرتها بأموالهم وعيرتها بفقر زوجها وعقمه ولأنها كانت فاتنةكانت كل الأعين تتطلع إليها تاركةفي كل خطوة خلفها آلاف التنهدات
كانت فرحتها بوليدها تكبر معه كل يوم وكل لحظة
استعانت العجوز بإحدى عاهراتها لتنتقم منها ادعت أنه أب لقيطها
كان الزوج فرحا بتقرير الطبيب الشرعي ببراءته من التهمة التي لطخت سمعته في البلدة وهو الرجل التقي الورع الذي لا يرفع عينه إلى أية امرأة
تضرع إلى الله في ابتهال ودموع الفرحة تملأ عينيه قاطعه الضابط بجفاء
أنت لا تنجب ابنك ليس ابنك ليس من صلبك
أحس بالأرض تهتز من تحته أغمي عليه
طلقها بعد أن فهم متأخرا سر إصرارها على الرحيل من بيت أسرته والعيش بعيدا عن مقر عمله وجدت نفسها مجبرة على الرحيل من القبيلة تطاردها اللعنات
لم يكن أمامها غير العجوز توسلتها قبلت قدميها حتى تنتشلها من الضياع وقبلت أن تعيش مع أخيها ولو من دون زواج بعيدا عن البلدة الصغيرة
بعد هروبها مع أحد زبناء العجوز جن جنون طليقها كلما رأى امرأة فاتنة يبدأ برشقها بالحجارة
لا أحد كان يبالي بهذيانه وتسكعه في الطرقات وحين صار يرمي العابرات بالحجارة قاموا بنفيه بعيدا عن البلدة".

أحس بالامتنان والحبور عند هذا الحد من الكتابة، وضع القلم والكراسة جانبًا، انتبه إلى أن الغروب قد أزف. فكر في جولة عابرة بالقرية قبل العودة.

تمطى قبالة الحقول، رنا إلى خضرة الزرع القصير، والشمس تلون الأفق بحمرة قانية، تأمل ديكًا يطارد دجاجة صغيرة فاردًا جناحيه، أحس بحنين جارف يهزه إلى قريته وطفولته العذبة هناك، استغرب كيف أنها تبدو أجمل مكان في العالم، أحس أنه تحت سماء أخرى. ذلك الإحساس لا يمكن أن يغمره في أي مكان آخر، ولو كان الريف التشيكي الخلاب الذي لم يره إلا في الصور.

خالجه إحساس بالشوق إلى البيت، وسرب عصافير يطير قريبًا منه.. إحساس عشرين سنة منصرمة. نفس الشعور الطازج في تلك الطفولة المعطرة في القلب والذاكرة، تلك الطفولة التي لم تكن سعيدة بكل الأحوال، لكن للذكريات عبقًا لا يقاوم، هتف لنفسه. وألفى نفسه صبيًا فوق سطح البيت، كل مساء، ينتشي بزقزقة العصافير وهي تتسابق في اتجاه أعشاشها.

وبحنين فائض تأمل الحجارة المكسوة بلونترابي، وآثار حوافر دواب وأغنام على الطريق الزراعية.

استرخى في المقعد الخلفي بالطاكسي، أخرج كراسته الصغيرة وقلمه، تشاغل بالكتابة، مبددًا قلق انتظار انطلاقها بعد أن يكتمل عدد المسافرين.

9

تنفس الصعداء، والسيّارة تشق الطريق المحفّر، ممزقة سكون المغيب بهدير محركها، أحس بالامتلاء الداخلي غبّ كتابة نصه الجديد، خامره إحساس بهيج بالتفاؤل: "إنه يختلف عن كتاباتي السابقة، وحتمًا سيغير الكثير من المفاهيم. لا أعرف لم أتعاطف مع الشخوص حد الذوبان، بغض النظر عن نظرة الآخرين الضيقة إلى فضائحية الأحداث؟ هذا الإحساس بالشفقة لم أحس به من قبل، هل بدأت أقترب من نبض المجتمع؟ هل بدأت أقترب من الناس ؟".

أطلق بصره من خلف زجاج النافذة متأملا وداعة الأشياء من حوله، رغم إحساسه المزمن بالحزن الغامض، والملل القاتل في مساءات الآحاد. إحساس لازمه منذ طفولة بعيدة: "أحيانا يخيل إليّ أني لم أعش ما يسمى بالطفولة، و(لن) أعرف شيئًا اسمه الفرح.. تمامًا مثلما أحس أن الكتابة كانت بلسمًا لجراح الذات الانطوائية، فتجلت الرغبة اللاشعورية في التعبير عن هشاشتي الجوانية، وحاجتي الملحة إلى حنان امرأة...".

وحيد في غرفته. على ضفاف السيليكون، أرسل إليها رسالة قصيرة (sms) لكي تدخل المسنجر. على القائمة تبدو له "نانا " متواجدة. صار يتجاهلها منذ مدة. لا رغبة له في امرأة تنظر إلى العالم بعيون طفلة، و لا في المزاح معها، وهو في أمس

الحاجة إلى من تقاسمه بعض همومه.. "يحتاج إلى امرأة تمتص بأسفلها أحزانه من أخمص قدمه إلى "قنة" رأسه"، كما كتب ذات قصة.
يقوم بوضع شارة "بلوك" على اسمها في القائمة.

رآى شاميته متواجدة في أحد المنتديات. خفق قلبه، أرسل إليها إيميلا: "حبيبتي، أنتظرك على المسنجر، بالمناسبة أرسلت إليك نسخة من قصتي الجديدة قبل إرسالها إلى المجلات الإلكترونية، ولا رغبة لي في نشرها في أي منتدى.
أبووسك".
جاءه الرد بعد لحظات: "سأتصل بك هاتفيًا بعد نصف ساعة، لا أستطيع دخول المسنجر الآن".
تناهى إلى مسامعه صوت والديه، بعد عودتهما من البادية. رفع صوت الموسيقى حتى يتوغل في عزلته الباذخة، واضعًا السماعتين على أذنيه، ثم امتدت يده إلى "السندويش".
وصلته دعوة إضافة من امرأة كتبت في حيز الرسالة القصيرة أنها أم عماد، أحس بفرح بهيج يسري في عروقه. أضافها للتو، بعد التحية كتبت تسأله عن ابنها بحروف لاتينية. بحروف عربية اعتذر لها لأنه كان مشردًا في الزمان والمكان.
- هل أنت شاعر؟
- مثلك يجعل الصخر ينطق!!.
- .....
- متى ستحسين بي.. يا لوعة الروح؟
- .....
- منذ رأيتك قبل عام وأنا لا أنام.. لا أنام إلا بعد أن أضمك إلى صدري وأحضنك بقوة و...
- وماذا أيضا؟!.
- أظنك وحيدة! زوجك. أليس في البيت الآن؟
- في المداومة، لن يأتِ إلا صباحًا.. وأحسّ بالبرد والوحدة!!..

ينظر إلى الساعة.. عقاربها تشير إلى التاسعة ونصف ليلا. في الخارج يتلاشى صياح الأطفال وركضهم - مبكرًا - في ليالي الشتاء.
- لحظة، لدي مكالمة هاتفية.
- من حبيبتك؟
- .....
- تريد مقابلتك الآن.

في الخارج، يلسع البرد وجهه، و قلبه عصفور يتراقص في قفص، لا يحتمل كل هذا الفرح الطاغي. كانت نبرة صوتها حزينة، اختلج فؤاده، أحس بانقباض في صدره، وقد ضاعف تأخرها في دخول المسنجر قلقه وتوتره.

- أعرف أن ثمة خبرًا سيئًا.. تكلمي.
- لا أستطيع الحضور إلى المغرب، كم حلمت بأن نتنفس هواءً واحدًا!!..
- لماذا؟ ما عدت تحبينني؟ اكتشفت أن حبّـنا مجرد أوهام؟
- أرجوك، يكفي ما بي، كفاك تجريحًا..

وجاءه صوتها مختنقًا، مبللا بالدموع.

- أووف. لم تبكين، يا امرأة؟
- لا يمكنني السفر بسبب "الفيزا"...
- سيدتي، ابحثي عن أية كذبة أخرى، أنت تخفين عني شيئًا ما...

ذاب صوتها في النشيج.

- تكلمي أو دعيني وشأني..
- سأقبل ذلك الزوج، رغم أني لا أطيق أي رجل، أبواي ضغطا علي.. ولا يمكن أن أعيش وحيدة أبد الدهر.
- مفهوم. وصلت الرسالة. انسيني.. وداعًا. لا تحاولي الاتصال بي مرة أخرى، سأعود إلى نساء الرصيف حتى أنساك!!..

انتابه ألم لا يحتمل، طفرت الدموع من عينيه وقلبه: " رباه، لم كتب علي أن أشقى دومًا؟ ألأني أحب ببراءة الأطفال؟ لماذا تعاندني - دائمًا- هذه الدنيا الكلبة؟". بيدين ترتجفان، وبكل قوته، سدد الهاتف المحمول نحو الجدار المقابل له، تطاير أشلاءً وشظايا.. وامتدت يده إلى الشريحة، انتشلها من بين البقايا، وضعها في جيبه، وشتت بقدمه أشلاء هاتفه الخلوي، وفي الحلق غصة.

ليس لدي أية حبيبة، وتلك.. بعيدة عني، بيني وبينها مدن وجبال وصحارى.

- كيف تعرفت عليها؟ ولم ارتبطت بها إذن؟
- دعكِ من كل شيء.. الشوارع خالية الآن، ليس فيها غير القطط والكلاب الضالة.

أرسل إليها أيقونة يدعوها إلى احتضانها.. طلب منها أن تشغل "الكام"، أخذ يتغزل بمفاتنها، ويترجاها أن تقشر فاكهة صدرها على مهل.

بجوار الورش لمح سيارة الشرطة، اختبأ حتى غيبها المنعطف. كانت تقف في الظلمة خلف البوابة، سمعت خطواته، أطلت بطرف عينها، التفت حواليه، دلف إلى الداخل بخفة، أغلقا الباب سوية، غرقا في قبلة طويلة، وهو يطوق خصرها، وهي تلف ذراعيها حول عنقه.

في برد الصباح وقف الأب، أمر " كبالا" بإخراج بعض الألواح الخشبية، وضعها على الرصيف، ومن داخل الورش تناهى إليه صوت "بعية" يتشاجر مع عمه.. يتهمه بإتلاف أدواته، مشيرًا إلى أنه سيأخذه مع "الدوزان"، كل يوم، إلى

بيته ، "الحولي ما كايثقلوش عليه قرونه"، بدل البحث كل صباح عن الملاسة أو المطرقة أو "الوترة". هو لا يعرف أنهم يتعمدون، كل سهرة سبت، إخفاء بعض أدوات "التباري"، متخيلين غضبه في صباح يوم الإثنين حين يفتقده، و"كبالا" يقلد عمه وهو غاضب.

وقف أمام البوابة حاملا كيس الثياب وأدوات العمل، منتظرًا أن يخبره الأب عن مكان عملهم الجديد. نادى على "التباري". للتو، وقف الخال بدراجته النارية. بعد التحايا، أخبره الأب أن المحامي يود بناء حجرة في الحديقة الخلفية للفيلا، وزوجته لا تريد "مْعلمين" غرباء في بيتها. قبل أن يسلم على خاله، سمعه يقول لأبيه : "اعْطيه ليهم عْطشْ وتْهَنّا". غمغم ببضع كلمات، مواسيًا في برود، وعاتبه الخال على عدم الحضور، فلاذ بالصمت.

دفع "كبالا" النقالة، فأحدثت عجلتها ضجيجًا، خاطبه:

- زَيّت هاذ الرْوَيضة.. صبّحنا ع الله!.

ساعد "التباري" "كبالا" في شحن الألواح الخشبية، وهو سار خلف الأب، حينما أشار إليه أن يتبعه.كان يحس بما يشبه النسيم يداعب أعماقه، سيكون يومًا رائعًا.. سيعملون مستقلين عن بقية الرفاق، وسيراها اليوم. بعد ساعة، ستشرق شمسها، ولن يصدقه "كبالا" حين يخبره أنه قابلها -أمس- في الحافلة.

كان هائمًا وهو يستمع إلى أبيه، الذي يشرح له ما سيقومون به.. سارية هنا، جدار واطئ هنا، وشباك هناك، وأنهى كلامه بنبرة الواثق من نفسه: "يجب أن يكون مسقفًا قبل ثلاثة أيام".

عند البوابة سمع "التباري" يمازح ابن أخيه :

- هاذ المرة كَاع ما توضرتي وبقايتي غادي سارح؟

لاذ بالصمت، وابتسامة طفولية تعلو محياه.

10

انشغلا بتقشير الملاط عموديًّا، في موضعي الجدارين، و"كبالا" يحفر في الأرضية الخرسانية، حيث ستنتصب سارية فوق قاعدة سارية البيت الركنية، وحتى

لا يعزل الجدار المزمع بناؤه الباحة الخلفية للفيلا عن الحديقة، المشرعة على الواجهة الرئيسة للمسكن، جعلاهما يلتقيان عند حافة الرصيف الجانبي المبلط الممتد حتى المدخل الرئيس المنحدر للمرآب، فينعطف الداخل في اتجاه الباحة ذات الأرضية المزدانة بمربعات "الموزاييك" الأبيض، تتخللها قطع رخامية صغرى، مهشمة الحوافي بألوان متباينة، أو يخطو بضع خطوات، فيصادفه باب الحجرة الملاصق للسور الخارجي للحديقة يحاذيه شباك، يقابلان الباحة الطويلة، واتفقا على أن يجعلا السارية - وحتى لا يتضاءل الممر- من جهة الواجهة الخلفية، حيث يقبع تحتها سلم رخامي، توصل درجاته إلى الطابق الأول، وعلى مقربة منه باب موصول بمطبخ القبو، واتفق مع "التباري" أن يشرع -وحده- في بناء الجدار الغربي، حتى ينتهي و"كبالا " من تسمير ألواح السارية، شارحًا له أن "الفوندو" الممتد حتى سارية الجدار الغربي سيكون أعمق من الثاني الذي سيتوكأ عليه، فوجب مراعاة هذا الفارق في بناء الجدار.

سمع صوت "بعية" التفت إليه، فوجده يلوح بيده لـ"كبالا" وهو يصرخ: "واااكبالاااا"، من فوق سطح الورش التي تفصلها عنهم ثلاثة مساكن، حين اختبأوا، بعدما انهمرت زخات من المطر، ابتهج "التباري" لتساقطها كأي فلاح..

كان قلبه ملبدًا مثل سماء هذا الصباح، علت شفتيه بسمة حزينة، حين سمع صفعة قوية تدوي فوق قفا "بعية ". عمه وعبد الرحيم لسعا قفاه بصفعة واحدة : "واشْ كاتْسحابْ راسكْ سارحْ النعاج في الواد ؟".

سمعوا صوت سيدة البيت وهي تنادي باسم عبد الله.

التفت إليهم "كبالا".

- شْكون اسْمِيـتوه عبد الله ؟

ارتفع صوت "بعية " مرة أخرى، وهو يرقص تحت المطر: "واااكبالاااا".

رجته أن يفتح الباب، لأن البنت لم تحضر بعد، وهي مشغولة بتجهيز الصغيرين للذهاب إلى مدرستهما.

حين وقعت عيناه على نادية، خفق قلبه بشدة، امتقع لونه، أحس بحلقه جافًّا، فغر فاه، واستدار بسرعة مبتعدًا كالملدوغ.

تأمله في صمت غير معقب. "التباري" لم ينتبه، ولم يحاول أن ينبهه. تركه يسترسل في حكاياه المتدفقة عن أرض أصهاره البيضاويين المجاورة لمحطة القطار، التي يبحث لها عن مكترٍ يستغلها، لأنها بعيدة عنه، وأصهاره يحتاجون إلى المال، ثم إحساسه بالمهانة بعد المال، الذي أنفقه في الوليمة، بعدما كان متأكدًا بأن الرجل كان يريد الأرض، ولا يعرف ما الذي جعله يغير رأيه، بعد انصرافه.

تظاهر بأنه لم يرَ نادية عند وصولها، أطرق برأسه وهو يضع اللمسات الأخيرة على قالب السارية.

جاءتهم بصينية الشاي، تناولها منها، أبعد "كبالا" حتى لا يضطرب في حضرتها، ويوقع كل شيء. راعه شروده وصمته، وهو يحدق فيها بعينين متعبدتين في قداسة. هتف لنفسه :"لو لم تكن أرملة لـ... آه يا قلبي!.. متى تتوب عن الهوى؟".
افتر ثغرها عن ابتسامة لؤلؤية عذبة، و"كبالا " يتميز غيظًا، كبركان يغلي في صمت.
- شكرًا.
ونهره :
- ابْـرَك، الله يبّركْ عليك الحْجـر.
وعلق "التباري" ضاحكًا ...
- نوض، جيب ليك جوج خبزات اخرين. هاذ الباريزيان راه رطب وما يدير معاك والو.

بهندام أنيق ورائحة عطرها تسبقها، جاءت تطمئن على الأشغال، قبل ذهابها إلى صيدليتها :
- البيت بيتكم. كل ما تريدونه اطلبوه من نادية.
بصوت واحد شكروها، وعلقت باسمة :
- تْهَلاوْ في عبدالله!..

رفع بصره فجأة، اختلج قلبه وهو يلمحها تتلصص عليهم. عندما التقت عيونهما اختفت. كان "كبالا" يدفع الناقلة واضعًا فيها الآجر، في عينيه يزغرد فرح العشاق الطفولي بقربهم من المحبوب، ومثل الأطفال حين يتخيلون أنفسهم يقودون دراجات نارية يردد : "عاانْ عاانْ عاانْ. طييط. طييط طيييط. حَيِّدْ أ التباري من الطريق". أفرغ حمولتها فوق السقالة، وأمسك "البالة" على هيئة وتر، وراح يدندن:"حيدوا عمي وانتاقموا مني، حيدو الثْوييباري وانتاقموا مني...".
تلعلع قهقهاتهم، و يتأملان أصابعه المفلطحة، التي لا تليق أن تكون أنامل عازف فنان، رقيق الإحساس، علق"التباري" متهكمًا :" تلك الأصابع لا تصلح إلا لـ"البَغْلي (الملاط)".

ضحك ضحكًا كالبكاء، وأطلق صدره زفرة حارة.
في نفس التوقيت غادروا البيت.بعد العصر، وصارت الحجرة لا ينقصها إلا النجارة المسلحة الخاصة بالسقف، وقد تناولوا غداءهم فوق السقالات، دون أن يستريحوا، ولو للحظات.
انصرفوا أمام نادية. كانوا يتحدثون عن برنامج العمل في اليوم الموالي، وضرورة الحضور مبكرًا.
كانت أم عماد تقف أمام البيت مع صغيرتها.
على شفتيها طيف ابتسامة لم يرها سواه، وسرعان ما تلاشت حين لمحت خلفهم نادية، أحست بانقباض في صدرها. توقف أمام الورش ونادى "كبالا" على "بعية ".

صفقت الباب في عنف خلفها، معنفة صغيرتها، و هي ترمق نادية - التي مشت بمحاذاتهم مطرقة الرأس- بنظرات نارية.

من فوق، أتاه صوت "بعية " و هو يعاتبه على أن هاتفه لا يرد كلما اتصلوا به، ويجدونه خارج التغطية.

- أطفأته إلى الأبد، أنا حر، ما شأنك؟ هل لديك أي اعتراض؟
- وذاك...

يلمح بيده من فوق إلى الجهاز الظاهر من جيبه.

- هذا رقم ثانٍ يا زوجي العزيز. رقم سري.

سمع صوتا خافتًا. كانت أم عماد - من شباكها- تشير إليه بيدها أن ينتظرها حتى تخرج. بقية الرفاق يلحون عليه أن يصعد، فتعلل بأنه مكتئب .. تبادل مع عبد الرحيم بعض الهمس، طالبًا منه مفاتيح حجرته، وضح له أنه سيتأخر في الخارج، وينتظر منه رنة على الهاتف، عند مغادرة الحجرة.

- إليك رقمي الجديد.

ركب رقمه، سمع رنة وأقفل الخط.

في الحمام، تأمل ملامحه الغائمة في المرآة، قال لنفسه :" الساعة الآن الثامنة بتوقيت غرينتش.. الحادية عشرة بتوقيت بلدها. لا شك أنها الآن أمام الحاسوب تنتظره، سأبتعد عن النت. لن أدخل أي موقع إلكتروني. يكفيني ما ضيعت من عمري على ضفاف السيليكون. ماذا جنيت؟!..

لن يتوقف العالم إن غبت عن الحاسوب أسبوعًا.. لا. لن أضعف. سأحاول أن أنساها. حتى لو بعثت ألف رسالة، فلن أقرأها. سأتحمل بعض الألم"، كتب اسمها بالسبابة فوق البخار، ثم مسح المرآة، وشرع في حلاقة شوك خديه.. تخيلها حزينة كئيبة دامعة العين والقلب، تصلى نارين.. نار "البعاد" و نار زواج بغيض أشبه بجحيم.

ترقرقت الدموع في محجريه، انسابت فوق خذيه الحليقين. وأحس ببعض الراحة.

ارتدى ثيابه وغادر، وردد الليل صدى وقع خطواته الواثقة من نفسها، وهو يدنو من الدكان القريب من الورش. تناهت إلى مسامعه قهقهات الرفاق، وقد تناثروا فوق قطع الآجر، ممزقين سكون الليل.

"كل هذا ليس مهما..."، يقول في سره . شيء واحد شغل باله. لم يكن يتوقع أن تنتهي جلستهما الغرامية، رغم بعض الكدر، حين سألته كيف قضى يوم عمله في بيت المحامي، أدرك سر تلميحها من خلال نبرات صوتها الحزينة. اختلج قلبه فرحًا بغيرتها من نادية، رغم الألم الذي تمطى في دواخله. لم تهدأ إلا حين عرفت أنها أم وأرملة، فهتفت في حبور صبياني :

- سأجعلك تنسى كل نساء الدنيا!!..

كان كل شيء على ما يرام، لولا... ما حدث.

وهما يغادران قبيل الساعة السابعة، كانت تتأبط ذراعه، وترخي رأسها على كتفه في الممر شبه المظلم.
نظر إلى عبد الرحيم مشدوهًا وإلى جانبه ابنها.
وغرق الأربعة في صمت مقبري...

الجديدة، أكتوبر 2007